همساتٌ حرّى من مملكة الموتى

(سبع قصص قصيرة)

حبيب عبدالرب سروري

لِعلي محمد زيد

... بائعُ الضوءِ، سلاما!

يا راعية القلب حزين مكروب
ولو ضحكتْ، ضحكي بكاء مقلوب
يا راعية شبكي عليك زياده
صدرِك جهيشْ، ودولتك جراده
عبد الكريم الرازحي، «موت نشوان ونكبة الراعية»

أقرأُ اليوم في دفتر المعصيهْ
شذرات عن الرفضِ-لاءاتِهِ
وجراحاتِها، والخيوطِ التي تصِلُ
الجرحَ بالأغنيهْ
....
الحياةُ لكي ننتمي
للضياءِ-إلى لا مكانْ
أدونيس، «الكتاب: أمسُ المكانِ الآن»

... ثمّ عندما بدأ يسيطر على نفسه، جلس، وداهمته فكرة الموت بوقار وعزّة نفس. خطر بباله أن الاحساس بالموت أثناء النوم مثيرٌ ولذيذ. كلُّ شئ يتمّ كما لو تناول المرء جرعة تبنيج. الموت تثليجا ليس بتلك الفظاعة التي نتصورها! ثمّة طرقٌ أخرى للموت أسوأ من ذلك بكثير.
چاك لندن، «يوقد نارا»

باقة من أغصان المجرّات

مثلما تخلّصت قوانين نيوتن من مفهوم المكان المطلق، تخلّصت نظرية النسبيه من مفهوم الزمان المطلق: كل فردٍ له مقياسه الخاص للزمن، المرتبط بموقعه وسرعة حركته.
ستيڤن هاوكنج، «ملخّص تاريخ الزمن»

إننا نحيا في اللامعقول، لكن إنطلاقا من إحداثيات جلية باهرة.
رونيه شار

مِثل كلّ خارقات الجمال، سناء، جارتي الساكنة على يسار منزلنا، تُحصي عُشّاقها بحبّات مَسبحة أمّها الزرقاء، تتلذّذُ بتكاثرهم، تتركُ الوقتَ للزمن بانتظار من سينتصرُ منهم في معركة إذهالها، من سيقتلعُ قلبها باصابع البطولة والإعجاز.

ضياء، جاري الساكن على يمين منزلنا، تلظّى عشقا أمام جمالها. أقسم منذ أن رأى مفاتنها تختال تحت فستانها الحريري الأسود أن يكون فارس أحلامها الأوحد، أن يحمل لها القمر في علبة زجاجية.

مثل كلّ ابناء شارعنا، كان ضياء مزيجا معترما من العاطفة والإرادة. بركانا من العاطفة والإرادة. لم يشأ، كبقيّة التائقين إلى يد سناء، أن يهرع نحو الأفق بحثا عن إبل مثقلة بالذهب وعن افيال مطرّزة بالديباج، لرصّها أمام أقدام أميرته. آلى، هو، إلا أن يطوي السماء، أن يرحل عموديا نحو المجّرات ليجلب لسنائه ثمارا من سدرة المنتهى وأصداءً من قهقهات مدن الملائكة.

إمتطى صهوة سفينتة الفضائية التي صنعها ليالٍ وأياما مقطّرا وقودها من صهارة إرادته. أطلق عنان سفينته النفاثه بسرعة الضوء كيما يعود بعد ساعة واحدة حاملا لمحبوبته ما يركع إعجابها. إخترق السدم والمجرّات، غاص في الفضاء، أثملته السرعة فضاعفها كيما يجوب كلّ حارات الكون خلال ساعة سفره. جمع باقات من أغصان كل مجرّة. ضغط قويا على دوّاسة تسارعه، سبق أشعة الضوء القادمة من الارض، تجاوزها في عدوهِ المتزايد السرعة. إلتقى في طريقه بأشعةٍ قديمة تحمل صورا من الماضي. أشعةٍ غادرت الأرض قبل انطلاق سفينته. صوّر بكاميرا الڤيديو فيلمَ الماضي المحمول في طيّات هذه الأشعة. تلكم أجمل الهدايا التي ستخرّ معشوقته ساجدة أمامها!

إنذهل ضياء عندما رأى في هذه الأشعة صورته هو نفسه، كما تركها قُبَيل لحظات، وهو يجلس فوق مقعده، أمام طاولته الواسعة يكتب قصيدة عشقٍ أخيرة قبيل إبحار سفينته الفضائية. تمعّن في رؤية ظهره وهو ينهمك بالكتابة. لم ير ظهره قط قبل هذا اليوم!

صعّد سرعته قليلا ليلتقط صور بداية قصيدته. فجأة بدأ يفهم غموض ما كان يكتبه حينها، ما كان لامرئيا قبل هذا اليوم الذي أبصر نفسه فيه من الخلف منكبّا على الكتابة. بدأ يُعرّي أقنعة كلماته، يستشفُّ تداخل ذبذباتها، لون طيفها الكلّي...

صوّر كل شيئ، ظهرَه المتحجّر، منضدته الفسيحة، الصورةَ المرآتيه المعكوسة

لقصيدته: صيغتَها النهائيه التي يعرفها عن ظهر قلب، تماوُجَ ألفاظها بانغام تواتر افكاره وخواطره، تشكُّلَ عجينة كلماتها الأولى، إنبلاجَ إرهاصاتها الجنينية من كتف سناء الأيسر...

مكّنتهُ هذه النظرة الماورائية أن يتجاوز الرؤية الغلافية المسطّحة لأشعاره، أن يستعيد تاريخَ نموها التنازلي من قشور أزهارها إلى باطن جذورها، أن يعيش اللحظة التي تكتسح فيها الكلماتُ الأحاسيسَ الدفينة، تحرّرها أو تستعمرها، تترجمها أو تمسخها... مكّنته هذه النظرة أن يقيس ضبابية كلماته أو مطابقتها لتردّد موجات أحاسيسه الأصليه، أن يحدّد المسافة الطوبولوجية بينهما...

رفع وتائر سرعته مجدّدا ليلحق بالأشعة التي تحمل صور فتاة أحلامه يوم لمحها لأول مرة على بلكونة منزلها، دافئة تحت فستانها الأسود، توزّع نظراتها على شارعنا الرتيب. صوّر كل شئ، رِقّة أكتافها، عينيها الحالمتين، فمها الوردي العبق...

ضاعف عجلة تسارعه ليصطاد أشعةً قادمة من الماضي السحيق. صوّر ولادة معشوقته، ولادة أسلافها، أسلافَ أسلافها، غرق التيتانيك، مصرع بوشكين، « آخر حسرات الأندلسي المسلم»، موت المتنبي، إجتماع السقيفة، حصان طروادة، طوفان سفينة نوح، الإنفجار الكوني الكبير.

عاد للأرض بعد ساعة حاملا أغنى باقة ورد، وأندر كاست ڤيديو. عاد بالفيلم مطويّا بزهور المجرّات، ليضعه أمام أقدام معبودته، ليكتسح به فؤادها إلى أبد الآبدين. ذلك هو قربانها، ذلك هو مهرها الأثير.

ترجّل جاري العزيز سفينته مزهوا بهدية زِفافه الفريدة. آه! نسي شيئا واحدا جاري القديم. نسي أن سرعته الضوئية أخرجته من ملكوت الفيزياء التقليدية! عندما بلغ الأرض، كان ذلك الكوكب العجوز قد أمضى عشرات السنين. ها هو ضحية إسراعه الفائق: كلّما كان يركض منبهرا في ضيعات الكون الفسيح، كلّما كانت البشرية تتجرع سنونا طوالا تعُدّ فيها أحزانها وتجاعيدها. ساعته التي قضّاها هائما بسرعة الضوء تساوي، حسب أبسط قوانين الفيزياء الحديثة، قرنا من زمن السلاحف، قرنا من زمن كوكبنا المسكين، قرنا من زمن معشوقته المندثرة.

فتّش عبثا عن سنائهِ بين أنقاض منزلها المتهاوي، بين أطلال مدينتنا القديمة. لم يجد أحدا، قرونا إلتهمت كل شئ. لقد أضاع معبودته إلى الأبد في إحدى أزقّة تقاطع زمن السلاحف وزمن الضوء. ها هو وحيدٌ يحمل أحزانه كوشجة في الأنف، غريبٌ في شوارع مدينة مجهولة، يفصله مئة عام عن محبوبته التي صوّر لحظة ميلادها قبل ساعة فقط! ها هو يسدّد ثمن جهلهِ لميكانيكا الضوء، يدفع فدية إغفاله لإحداثي الزمن، للبعد الرابع. هاهو يتمزّق بكاء وحسرة. لمَ لا وقد كانت مغامرته قاب قوسين من إكتمالها لولا أنه لم يأخذ نظرية النسبية بعين الإعتبار. هاهو جاري القديم ينكمد أسى بعد أن كان يتلألأ عشقا قبل ساعة واحدة، قبل قرن واحد. ذبلت عيناه، عمت ألما وندم.

أعرفُه جاري القديم، كما أعرف نفسي، أنا شيخ الشارع الذي لا يموت، أنا ركن الشارع الذي تمرّغتم جميعا في أحضانه، أطفالي الأعزاء!

إذا أردتم مواساته وإعادة النظر لعينيه، فعليكم برائحتها! عليكم بالوصفة القديمة (فَجَارِي الذي سافر نحو المستقبل بحثا عن الماضي، جاري الذي صعد عاليا ليحفر في أسفل

القاع، لا يعترف إلا بالوصفات القديمة). عليكم بالوصفة الناجعة الوحيدة: إبحثوا عن حفيدة معشوقته القديمة. إبحثوا عنها في كل ارجاء مدينتنا النائمة. إبحثوا عنها فهي تخبئ بين أمتعتها أشلاء قميصٍ حريري أسود، هو إرثها الوحيد من جدّتها، معشوقة جاري الحزين. إبحثوا عنها في كل مكان كيما تعيركم الفستان دقائق معدودة. ثم ارموه فوق أعين جاري القديم إن أردتم أن يرتدّ بصيرا.

باريس – المُكلّا، أغسطس ١٩٩٨

أبجد 69

...وعندما شرعتُ بتفكيك دالّة ذاتي على الإحداثيات الثلاثة: الكلمة، الفكرة، الشئ، وجدتُ أنني أمام ثالوث من خصومٍ-أخلاء يعيشون مزيجا معقّدا من الصراع والعشق الدائمين...
كاتب مجهول، نادي الشعراء، أنترنيت

١

أديبة، أستاذة الأدب الياباني المقارن بجامعة صنعاء، وعبد العالم، أستاذ الميكانيكا الكونتية بجامعة المُكلّا، يقطنان ڤيلتين متجاورتين يفصلهما رواقٌ مفتوحٌ على الدوام. لا يغادران ڤيلتيهما المعلقتين على إحدى مرتفعات جبل أريم المطلِّ على طور الباحة إلا نادرا، لأنهما يشكّلان معا منظمة قاعدية فريدة. منظمة قاعدية، والحق أقول، من «طرازٍ جديد». إسمها، أبجد 69، يختلف في بادئ الأمر عن أسماء المنظمات القاعدية الأخرى التي تنقل دون جهد تخيّلي أسماء مرافقها المهنية أو مواقعها الجغرافية. لا أعرف لماذا اختارا هذا الإسم، وما سرُّ رقميه. لعلّه كان بداية أحرفِ جملةٍ غرامية حميمة، أو ربما مجرد إسمٍ مسطّحٍ إختاراه برغبةٍ جماعية لا يخفي معنى يستحقّ الإستقصاء.

أبجد 69 منظمة قاعدية فريدة لأنها، قبل كلّ شئ، تتكون من عضوين فقط. إذا لم تخُنّي ذاكرتي، فالحدّ الأدنى لعدد أعضاء أية منظمة قاعدية، من مشرق هذا العالم المترامي الأطراف إلى مغربه، هو ثلاثة أعضاء. غالبا ما تطعن أديبة وعبدالعالم في اختيار هذا الرقم بحجّة أن صلاة الجماعة تبدأ باثنين وليس بثلاثة. غير أني أظن أن لذلك الطعن أسبابا أكثر جذرية، أهمّها أن لهما موقفا ايديولوچيا معاديا لتمايز صيغة المثنّى عن صيغة الجمع في اللغة العربية. يعتبران ذلك التمايز مجرد عبثٍ لفظي، ويوصيان دوما الأكاديميات المختصة بإلغاء «التمييز العنصري بين صيغة المثنى وصيغة الجمع»، كما يقولان، وذلك عبر انصهار الأولى كليّة، نحويا ولفظيا، في بوتقة الثانية.

لا أعتقد أن منبع موقفهما الايديولوچي الرافض هو عدم استساغتهما «للبِدَع» اللغوية، أو للكيانات «اللامنطقية» في اللغة العربية أو في غيرها من اللغات. فهما مثلا مغرمان بـ«بِدْعة» جمع التكسير في اللغة العربية، لدرجة أن بحثهما المشترك طوال سنوات علاقتهما الحزبية – فهما غير متزوجين، وليس لهما أية علاقة تستحقّ الهمس أو التلويح من خارج النشاط الحزبي – هو مقال شهيرٌ عن جمع التكسير. يبدأ هذا المقال، كما أتذكّر، بملاحظة عامة حول ظرافة تسمية «جمع التكسير» التي تمزج ديالكتيكا بين كلمتي «الجمع» و«التكسير» المتناقضتين. ثم تدرس اديبه فيه الدوال الجمالية لصيغ وأوزان جمع التكسير في العربية، محدّدة «ماوراء» أبعادها النغمية، ومبرهنة على أن مخارجها الصوتية وطرق غربلة المقاطع اللفظية لمفرداتها تعطي لتلك الدوال قيمها الرياضية العليا. بينما يستنبط عبد العالم في هذا البحث، إنطلاقا من نظرية أديبة، ما يشبه جدول «مندليف» يحدّد فيه مختلف بُنيات صيغ جمع التكسير وأوزانه الممكنة. جدول «شامل واستشرافي أيضا» حسب قول المتخصصين والنقاد، «يمكن إستخدامه كمبيوتريا في

الإنتاج الاتوماتيكي لجمع تكسير أي إسم مفرد معروف أو إفتراضي »، كما أضافوا.

إلا أن أقوى ملامح وحدانية أبجد 69 هو عدم ارتباطها بأي إطار قيادي كان. فهي لا تنضوي تحت ولاية لجنة مديرية أو محافظة. لا تعلوها لجنة مركزية أو مكتب سياسي. أبجد 69 لا تدور في فلك أحد. إنها حزب كامل له قاعدته وقيادته. له أطره المتخصصة. نظام عمل هذه الأطر بالغ الفرادة هو الآخر. فأبجد 69 لها سكرتيران أولّان! من الثامنة صباحا حتى الثامنة ليلا، يؤدي عبد العالم مهام السكرتير الأول. وتقوم أديبة بهذه المهام في الإثنتي عشرة ساعة الأخرى. يحترم كلاهما، بشكل عام، فترة تربّعِ الآخر على عرش المنظمة القاعدية ويتفانى في إخلاصه له وهو يوجّه دفّة القيادة. الحقّ انّه تعايش سلمي لا يخلو من شوائب جزيلة. فبين فينةٍ وأخرى يرغب أحدهما أو كلاهما (ريثما يتمّ مشروعا ما، أو كيما يواصل مهمة لا يروق له تفتييت أدائها) أن يتمادى في قيادته ساعات أو أيام يراوغ في إختلاسها من تخوم فترة قيادة الآخر، أو يفاوض من أجل اقتراضها دَيْنا يقسم على إعادته فيما بعد. ربما كانت كلمة «شوائب» التي استخدمتها قبل قليل ضعيفة جدّا في بعض الأحيان. صراعاتٌ حادة، والحق يقال، تلك التي تتفجّر بينهما هنا وهناك. فكلاهما راسخٌ في ملّته، متفانٍ في عمله، عنيدٌ في هوسه، يحب الوصول إلى طرف رسالته واستنزافها ككلب جائع ينهش ويقلّب باستماتة عظم كتف طازج.

ربما كانت عبارة «صراعات حادة» التي استخدمتها قبل قليل غير كافية هي الأخرى لوصف ما يدور في كواليس أبجد 69 في أحيان محدّدة كالحلقات الثقافية أو الإجتماعات الدورية. تنعقد الأولى فى ڤيلة أديبة قبل منتصف الليل. والثانية في ڤيلة عبد العالم في الصباح الباكر.

جميلة وأخاذة، تجلس أديبة على مقعدها الوثير في واجهة مكتبتها العامرة، مستعدّةً لقيادة اجتماعاتها. خلفها أجمل موسوعاتها وكتبها المجلّدة. أمامها منضدة تبغية اللون مصنوعة من خشب السنديان الفاخر، باقة ورد عطرة على مزهرية زجاجية شفّافة تركوازية اللون، نخبة من أقلامها الحبرية الثمينة في إناء رخامي فيروزي، أوراقٌ بيضاء، وعدد من الكتب التي ينزلق بين صفحات بعضها مَعْلَمٌ من شريط الحرير. يتفجّر وجهها صفاء وذكاء. تطمح أن تُسقِط عبد العالم في حبائلها الفكرية وأن تستحوذ على عقله وقلبه معا ليصغي بإمعان لما ستقدمه للإجتماع من مواد وأعمال. تُعدّ سيناريو كل اجتماع بفن مسرحي ودقة مفرطة: تفتتح الإجتماع بابتسامة وديعة تزداد سناءً مع ضحكات عينيها الخضراوين. تفتح ملفاتها، تخرج بعض أوراقها، يتماوج شعرها الفاحم على ضفاف بشرتها الوردية ليضفى عليها حلاوة وفتنة. تلمسه سريعا بأطراف أصابعها لاستعادة خصلاته الهاربة، مجلية كلّ أنحاء وجهها المُشرق. ثم يبدأ انسياب الكلمات من فمها الرقيق كسيل عذب، أو كنهر من عسل مصفّى. كل شئ يتجدد في اختيار عباراتها، في تعبيرية نظراتها، في موجات نبراتها، في مفاجآت تسلسل أفكارها... كلّ شئ له موضعه وقيمته في تمازج وعلاقات كلماتها، في حركات أصابعها وكتفيها اللذيذين، في توزيع نظراتها بين المكتب والحائط ومستمعها الوحيد... ربما كان عبد العالم أكثر العشاق صوفية أمام سحر أديبة، إلا أنه لا تمرّ دقائق على بدء الإجتماع حتى يمتشق سيف عدائه ويبدأ حروبه الصليبية على رئيسة الإجتماع.

عند قيادته لاجتماعاته، يحاول عبد العالم أن يستعين بكلّ أبهته ووقاره اللذين تذكيهما فضّية شعر رأسه الغزير الأشيب وشاربه الكثيف من ناحية، وميله، من ناحية أخرى، إلى توهيج فضيتيهما المبكرة بارتداء المعاطف ذات الألوان الليلية الداكنة. يأمل من أعماقه جذب أديبة إلى الإنصات المتفاعل مع أطروحاته ومواده. قبل افتتاح اجتماعاته، يبدأ بتشغيل كمبيوتره الجوّال وربطه بالڤيديوبروچكتور الذي يسمح بنسخ شاشته على شاشة كبيرة يمكن إدلاؤها أوتوماتيكيا فوق إحدى جدران مكتبة عبد العالم (أو مختبره، كما يسميه البعض). يقود الإجتماع واقفا في أغلب الأحيان. يلمس بين فينة وأخرى زرّ « ريموت كونترول » كمبيوتره، ليقلب « صفحاته الشفافة » المعروضة على الشاشة. يهيئ ويقدّم ويكثّف نقاط وأفكار اجتماعاته بعبارات دقيقة ترتسم على « صفحاته الشفافة » مدعومة برسومات بيانية متحركة، أو بأشكال هندسية توضيحية. لا يخلو تقديمه من رونقٍ في الإخراج، من ذوقٍ في الديناميكية، ومن تألقٍ في استخدام التكنولوچيا الحديثة المثخنة بآخر شطحات تعدّد الوسائط (الملتي ميديا). (يكفيكم رؤية ذلك لتقتنعوا سريعا بأنّ زمن استخدام الطباشير هو جزء لا يتجزأ من عصور الديناصور). ربما كانت أديبة أكثر الناس إعجابا وذوبانا أمام هيئة عبد العالم وجاذبيته الرفيعة (الذي يلقّبه طلاب جامعة المكلّا بسببها « جلالة الأستاذ »). لكن، لا تمرّ دقائق على استهلال الإجتماع حتى تفقد اديبة رقّتها الغريزية ونظرتها الملكية الناعسة متحوّلة إلى مناسخة الشاعر الجاهلي الذي قال:

ألا لا يجهلنّ أحدٌ علينا فنجهلُ فوق جهل الجاهلينا!

عندما يعرض عبد العالم مداخلة ما، لا « تُسَحْدِل » أديبة نقدها. تقول له عموديا: « لُغتك تثير الغثيان! » طالما كرّرتْ أمامه أن لغته جافة، أو « خشبية » على حد تعبيرها. لا أعرف هل تتظاهر أديبة بنوع من الشخير أم أنها تنام فعلا عندما يستعرض عبد العالم بنات قلمه. لكنها تزدرد بالفعل، وبشكلٍ إستفزازي، قرص إسبرين في بعض الإجتماعات، مربكة رفيقها الحزبي وهو يسهب بوجد وشغف في تفصيل فكرة يعتقد أنها عميقة ومغرية. تقول له دائما إن ما يكتبه بلا روح، وأنها تشعر بالبرد عندما يقدّم تقاريره « الجرداء ». ويحدث في بعض الأحيان أن تحضر إجتماعاتهما حاملة بطانية لإغاظته قبل بدء الإجتماع!

يفرك عبد العالم يديه عندما تقدّم أديبة انتاجاتها في إجتماعات أبجد 69، يتّهمها على التو بالضبابية والتكلف. يقول لها إن المجاز هو هوسها الوحيد، وإن أطروحاتها ومواضيعها بلا نظام أو بُنية. يكرّر: « كلماتكِ إلكترونات طائشة دون نواة، ملابس بلا أجساد، شربة هلامية لا تسمن ولا تغني من جوع ». يقول: « إعذريني يا سيدتي! الرمز والإيحاء هما غايتك الوحيدة، في حين ان تقارير المنظمات القاعدية لا تُكتب بلغة الإيماء والتلميح ». يتذكر يوم قالت له إن كتاباته « أقرب إلى مقالات رياضية منها إلى حزبية » ليردّ عليها، بأثر رجعي، قائلا: « كتاباتك فقاقيع كلماتيه تنمحي من الذاكرة بعد ثوانٍ من سماعها، مثل قصائد بعض الشعراء » (الذين لا أحب ذكر أسمائهم هنا).

– هراء، لغط، ثرثرة، ضياع وقت! يقول عبد العالم لقرينته في العمل الحزبي قبل أن يبدأ عراكا فلكلوريا حول وظائف اللغة وطرائق التعبير:

– هناك لغات أخرى غير تلك التي تفهمها الآلة الحاسبة أو الرجل الآلي. إذا كنتَ يا عزيزي منسوخا بحيث لا تفهم إلّا مثل هذه اللغة، فلا تنتظرمني أن أخاطبك بها، تردّ أديبة.

– لِي ياسيدتي في الحياة مشاريع أخرى غير إضاعة وقتي بحثا عن «المعنى في بطن الشاعر»، يقاطعها عبد العالم.

لولا احترامه اللامحدود لأديبة، ووقارهُ الأسطوري الذي لا يسمح له بالهبوط إلى مراتع الإبتذال، لأضاف عبارة تحلم أن يطلق سراحها منذ ألف عام: «أفضّل البحث عن المعنى في نهدي الشاعرة على البحث عن المعنى في بطن الشاعر!» يترك هذه العبارة مكبّلة، معصوبة الفم في قعر أغواره المغلقة، مواصلا ما قالَهُ علانيّة:

– كل كتابة ينبغي البحث عن معانيها في بطن الشاعر لها في رأيي مكان واحد: المزبلة.

– كنت أعتقد أن مثل هذه العبارات لاتخرج إلا من أفواه المتعجرفين، أو...

توقّفتْ، إبتسمت بنعومة، مخفظةً صوتها ومصوّبةً نحو عبد العالم نظرة عفريتية لذيذة، مضيفة:

– أودّ أن تعذرني جيدا، أو... من أفواه الحمير.

– لحسن حظّك انني لست سوقيّا، أنا! لأنني كنت سأقول في هذه اللحظة شيئا غليظا سيزعجك، يردّ عبد العالم دون أن ينجح في إخفاء الغضب الذى داهمه على حين غرة. يضيف للعبارة المكبّلة في قعر أغواره المغلقه، الملحقَ المكبوت التالي: «...أفضّل البحث عن المعنى في نهدي الشاعرة، لأنني حتى إن لم أجده، فعلى الأقل لن أشعر انني أضعت وقتي!» يتفركش الإجتماع دون اختتامه باسم الثورة والحزب الحاكم.

ينبغي أن أنوّه أن ما سردته هنا من مهاترات، تشكّل في الجوهر أرقى لحظات أبجد 69 وأكثرها انسجاما وتفاهما. لأن ما يحصل عامة هو الإختلاف حول نقاط أعمال كل اجتماع دوري وحول مواضيع كل حلقة ثقافية. لأن كليهما له مواضيعه اليومية الأثيرة، ويعتبر مواضيع الآخر لا طليعية، أو في أفضل الأحوال أقل جوهرية وأهمية. في مثل هذه المفترقات، ترتقي مهاترات أبجد 69 إلى مصاف مناطحة الثيران منها إلى الأخذ والرد المهذبين.

الحق ان هذه المناطحات تظلّ هيّنةً إذا ما قورنت بما يدور خلال باب «النقد والنقد الذاتي» في كل إجتماع. لا أبالغ إذا قلت أن باب النقد والنقد الذاتي في الإجتماعات الأكثر درامية في تاريخ منظمات الحزب الإشتراكي اليمني، إذا ما قورن بنظيره في إجتماعات أبجد 69، فهو أشبه بغزلٍ رومانسي خالص. يؤسفني أنه لا يمكن لأحد العثور على شذرات من تراشقات النقد والنقد الذاتي في مَحَاضِر أبجد 69، لأن أبجد 69 منظمة قاعدية بلا محاضر! – ألم أقل منذ البداية أن أبجد 69 منظمة قاعدية من «طراز جديد»؟ –. يكره عضواها كتابة المحاضر كما تكره القطط السباحة. يرفضان كتابة المحاضر بالإجماع. أو بالإجماع «زايد صوت»، كما يروق لأديبة القول في لحظات صفاء أجواء منظمتهما القاعدية.

لحسن الحظ أن صراعات أبجد 69 لم تؤدّ حتى الآن إلى اندلاع حرب طاحنة بين عضويها، أو إلى انقلاب عسكري في هيئاتها القيادية، لأن لأديبة وعبدالعالم زميل لبيب، وصديق ودود، يعرف كيف يحلّ أزماتهما الشائكة: جبران، «منهي الشقاق وحارس الوفاق وموحّد الرفاق»، كما تقول أديبة مازحة. أو «وثيقة العهد والإتفاق»، كما يلقّبه عبد العالم ضاحكا.

جبران، أو «لجنة الرقابة الحزبية» كما يسميه سكرتيرا أبجد 69، شخصيةٌ بسيطة وشهيرة في أرجاء عدن، يهواها كل من يعرفها. إذا حاولتُ تلخيص جبران في كلمتين فسأقول انّه من أبناء المِدْارة، ضاحيةُ ضاحيةِ عَدَنْ. يجمع كلّ من يعرفه من قوم هذه المدينة على أنه إنسان بالغ اللطف، سلِس الحديث، وسيم الطلعة. يعتمر غالبا مشدّة رأسه البيضاء على الطريقة اللحجية. يرتدي عادة فوطا حضرمية تتناسق ألوانها مع خاتمه الفضّي الصنعاني. يتميّز بعينين واسعتين، بقامة معتدلة، وببقايا جسد رياضيّ مرموق، إذ كان نجم خط وسط نادي «الواي» في منتصف السبعينات. جسد يميل كثيرا للضمور هذه الأيام (معاكساً إتجاه حركة التاريخ التي تُحتّم البدانة أو كروية البطن قرب عتبة الأربعين) وذلك بفضل رياضة «الجُرْعات» (١) الوطنية التي تخلّصُ جبران من ثلاثة كيلوجرامات في كل جرعة، والتي ستنتهي – منطقيا – بتجريده من طينيّة بني البشر (التي ازدراها ملاك سابق – أحرقه الله بنيرانه –) مبشّرة بترقيته إلى روحٍ بلا جسد، بعد الجرعة التاسعة عشرة، في حدود عام ٢٠١٠ وإعفائه بالنتيجة من كل المساوئ الأرضية والإلتزامات المبتذلة التي ورثناها من خطئية سيدنا آدم – أغدقه الله بغفرانه–.

يُخزِّن جبران القات غالبا في مُنتدى ط +ب في المنصورة، أو في مُنتدى ن.ى. بالشيخ عثمان. إذا أردتم رؤيته خارج هذين المُنتديين الممتعين فأبحثوا عنه في معمعة أي تجمّع فيه مشاجرة أو تضارب. فجبران قضّى حياته يفصل بين المتضاربين، أو «يُفارِع» بينهم كما يحلو القولُ في لغة الشارع. وقد ترك ذلك للأسف بصماته على جبران من أقصى الرأس إلى أخمص القدمين. فكلّ عراكٍ جسدي يوقّع ذكراه في عظام جبران الذي خسر كل أسنانه وبدائلها مرارا وهو يُفارع بين المتخاصمين. حتى أن جزءا ملحوظا من إحدى أذنيه قد «انْقرَط» كليّة بين ضروس أحد المتشاجرين الذي اندفع كوحش جريح غير مميز بين جبران (الذي اندمج في المبارزة مفارعا) وبين خصمه الذي فرّ بعيدا عن الحلبة. فرّ سريعا عندما رأى تلألؤ أنياب ذلك الوحش الذى كان يجهل أن تقاليد عراك شوارعنا تبدأ بصفعة إرباك، أو بلطمة «تُقرّح الشرف»، في حين أن تقاليد شِعابِه الجبلية، المبنيّة على العضّ، تبدأ، كما يبدو، بإلتهام جزء من أنف الخصم أو خدّه، أو أذنه في أرقّ الحالات.

إلا أن أكثر ما استرعى إنتباهي في شخصية جبران هو منهجيته المميزة في حلاقة لحيته! إكتشفت هذه الظاهرة الفريدة يوم تعرّفت عليه في نهاية سنوات الثانوية، في منتصف السبعينات. لا أضيف جديدا إذا قلت أولا أن نهاية الثانوية هي بداية بروز شعيرات تنمو هنا وهناك في أنحاء عدّة من الجسد، لا سيما في ضواحي الوجه أو في الحدود الفاصلة بين الأنف والفم. يفخر كلّ منا بإرهاصاتها الأولى، يراقب باهتمام إتجاهات نموها، وينتهي أمام تكاثرها المزعج بالتساؤل الجاد حول استراتيجية التعامل معها، وحول الإنخراط أو عدم الإنخراط في أحد المذاهب أو المدارس التقليدية التي يحفل بها علم الحلاقة. فلكلٍّ من مذهبي الحلاقة وعدم الحلاقة شيعتة وأتباعه. طقوس المذهبين، كما تعلمون، عديدة ومتداخلة. هناك طائفة هواة الشفرة وهناك طائفة هواة الآلة الكهربائية. هناك مدرسة الحلاقة قبل «الكولجيت» ومدرسة الحلاقة بعد الكولجيت. يحلو للبعض حلاقة

لِحاهم جزئيا على غرار نماذج معينة: الكابتن هادوك، إمبراطور الصين تايزونج (ثاني أباطرة سلالة سونج التي ظهرت في القرن العاشر)، العلاّسي، هوشي منه، الحاج الرُديني، لينين، طارش المعمري (أبو زيد الهلالي)، أمراء البترول... ويحلو للبعض الآخر التخلّص منها يوميا أو في فترات أقلّ تواترا وانتظاما. يروق لبعض أنصار مذهب عدم الحلاقة أن يتركوا لِحاهم تنمو فوق الصدر على غرار الاشوريين او الفراعنة، على غرار اليسار المتطرف في أمريكا اللاتينية وأوروبا الغربية، أو على غرار بعض التيارات الإسلامية في دول الشرق. ويترك البعض الآخر – وهذا «أبشع» الإيمان – لِحاهم تنمو مختبئة داخل الصدر، متغلغلة في أعماق الأحشاء. بعضهم، مثلي (من تيار «البرجوازية الصغيرة» التي لا تتخذ سياسة حلاقة واضحة)، يدعها تنمو بشكل عشوائي، وعندما يكتشف أن نموها المبرقع، في نصفي الوجه الأيمن والأيسر، لا يحترم مبدأ «التماثل الهندسي» يقتلعها دون رثاء أو ندم.

أمّا جبران فقد اتّخذ لنفسه منوالا لا نظير له في مسألة التعامل مع اللحية. قرّر منذ بداية إطلالة زغبها الأولى أن يحلقها في أيام المناسبات الوطنية فقط، المنسية منها واللامنسية، التي يُحتفل بها رسميا أو التي أُلغِيَ الإحتفال بها. هكذا أراد جبران منذ فجر شبابه أن يكون التجسيد الإنساني الحي للبرنامج التلفزيوني «حدث في مثل هذا اليوم» مع فارقٍ شاسع: لا ينسى جبران أي حدث تناساه – لسبب ايديولوچي أو سياسي – أم لم يتناساه الآخرون. ولكي يكون حقا ذاكرة لا إنتقائية تؤرخ وتستوعب كليّة مجمل الأحداث، يقضّي جبران ساعات متواصلة ينسخ فيها مذكرات كل يوم يمرّ، يرصد أهم أحداثه وملخصات ما يقال عنها. يؤرشف ما تقوله الصحف والإذاعات (مميزا بين صدقها وكذبها). يسجّل ما يحدث لمعارفه وذويه، يوثّق آراءهم اليومية ويتابع اتجاهات تطورها وتغيرها.

«لماذا حلقتَ اليوم؟» سؤال كنا نوجّهه لجبران عندما نرى وجهه أملسا «كالفتريّة»(٢). بفضلِ إجاباته كنا نكتشف تفاصيل جديدة لأحداث لم نلتقط إلا عناوينها الكبرى: حصار صنعاء، حركة الأحرار، تأسيس النقابات السّت... ومع مرور الزمن صارت لحية جبران المحلوقة جرسا يوقظ سنويا مناسبات في طريقها للنسيان: إنقلاب ٥ نوفمبر، الإنتفاضات الفلاحية، قانون صيانة الوطن... أو تواريخ احتُفِل بها ثم نُسِيتْ كليّة: ١٤ مايو، ٥ فبراير... ويعود في الأخير لِلحيتِهِ المحلوقة الفضل الوحيد في الإحياء السنوي لذكرى أحداث غريبة أُغلِق الحديث عنها غداة وقوعها: سقوط طائرة الدبلوماسيين، إنتحار قماطة شنقا بخيوط حذائية، مقتل الرئيس الحمدى، وإختفاء سلطان القرشي وصحْبِه...(٣) ربما كنا شعبا يشكو من قصر الذاكرة، أو كما يقول جبران بتعبير أكثر سموا وسخرية، ربما كنا شعبا لا يشكو من مرض تضخم الذاكرة. نعم، ربما كنا بالفعل شعبا لا يشكو من مرض فرط التذكر، إلا اننا أيضا لا نشكو من نقص الوقائع السياسية بصراعاتها وويلاتها ومعاركها الدامية، أى لا نشكو، إذا جاز التعبير، من رتابة الحياة وعدم تجددها الدائم. لهذا السبب ألِفَ جبران نفسه مع مرور السنين يحلق لحيته في فترات تتقارب أكثر كلّما ازداد تضارب الأحداث في حياتنا. أما منذ سنوات فهو يحلق لحيته بانتظامٍ فذ. يحلقها أكثر من مرة واحدة في بعض الأيام.

لجبران في حياته أحلام بسيطة لم يستطع أن يحقّق معظمها. أوّلها ذلك الحلم الذي

راوده عندما أرخت الأحداث السياسية سدولها على حياتنا الوديعة بشرائع وأعراف عجيبة إسمها المنظمات القاعدية بأنظمتها الداخلية ومركزيتها الديمقراطية وأطرها العليا ولجان رقابتها وتفتيشها المالي... كان حلم جبران حينها أن يكون عضو لجنة رقابة حزبية، وأن يحْضر اجتماعات منظمّته القاعدية واضعا فوق كتفه شريطا أحمر، أو «بِلّة» حمراء كما نقول عادة، شأن مراقبي صفوف المدارس الإبتدائية في الستينات. لم يحقق أبدا ذلك الحلم. ليس لأنه لم يُرشّح قط لمنظمة قاعدية فحسب، بل لأن روح الفكاهة في النشاط الحزبي لم يكن أبرز سمات العمل الثوري المنظم وأكثرها حضورا وأهمية.

حلمه الآخر هو أن يكون عضوا في لجنة فرز أي إنتخاب كان. فلا شئ يثيره أكثر من أن يستطيع قراءة ما يهمزه ويلمزه الناخبون، أو ما يتقياؤه بحرارة فوق استمارات تصويتهم. فلكم تمنّى جبران أن يُسمح له بعدّ أصوات الناخبين فوق سبورة نظيفة قبل إعلان النتائج النهائية في خطاب إحتفاليّ ودّي بهيج. لحسن حظّه أنه لم يحقق أبدا هذا الحلم. أنقذه ذلك من نوبات التقزز والإشمئزاز . وأنجاهُ من إكتشاف أنه في كلّ الإنتخابات التي عرفتها دائرته الإنتخابية من أمد بعيد، مرشحا كان أم لا، كان ينال أكثر الأصوات الناخبة دون أن يُنتخَب رسميا مرّة واحدة في حياته. فكلّ سكان دائرته يحبونه ويفضلونه على أي أمين عام أو رئيس جمهورية. لأن جبران، باختصار شديد، «مكينة إسعاد» في أعين كلّ معاصريه. يعرف كيف يغرقهم ضحكا وسخرية من بؤس حياتهم المتواصل، ومن قحط أيامهم السوداء، ومن تكرر حروبهم الطاحنة، ومن مرارة «جرعاتهم» المتلاحقة، ومن أعراف قبائلهم الحاكمة. يعرف بكلماته البسيطة المبدعة كيف يخلق السعادة من العدم، وكيف يجد في المحال واللامعقول الذي يدمّر تاريخهم ومستقبلهم مفارقات وحكايات لذيذة توزّع البهجة والسرور على كتائب الجائعين والمحرومين.

لكن لسؤ حظنا، نحن معاصرو جبران، أنه لم يُنتخب رسميّا ولم يُعيّن مسؤولا سياسيا ذا صاع وباع. فقد كان قادرا وحده أن «يُفارِع» بين الجبهة القومية وجبهة التحرير عشيتي حربيهما الأهليتين؛ بين «اليمين الإنتهازي» و«اليسار الإنتهازي»؛ بين القيادتين العسكريتين لشطري اليمن وهما يخوضان على الحدود الجنوبية – الشمالية السابقة حربي ١٩٧٢ و١٩٧٩؛ بين الأربعة أو الخمسة الرؤساء اليمنيين الذين أعدِموا في السنوات الأخيرة وبين قاتليهم؛ بين الأطراف المتعادية في كل الحروب التي تتعاقبَ على اليمن بعشق لاذع وانتظام متسارع. أجل! ربما كان جبران أنجع من «وثيقة العهد والإتفاق» وأجدر من الأخضر الإبراهيمي في حلّ صراعات طرفي حرب ١٩٩٤...

٣

لهذا تلجأ أبجد 69 إلى الإستنجاد بجبران عند احتدام معارك عضويها وانغلاق أبواب التسوية بينهما. تسمح له، من ناحيتها، بدخول إجتماعاتها العنيفة بِبِلّةٍ حمراء. ويقوم هو، من جهتِه، بإذابة صراعاتها تحت سيل حكاياته العرم. يتوجّه حينها شخصيا دون إبطاء نحو طور الباحة للمؤالفة بين أعضاء أبجد 69... يدعو أديبة وعبدالعالم لتناول الغذاء في أحد المطاعم المتناثرة على سفوح جبل أريم. ينتظرهما هذه المرة في شرفة مطعم ياباني

تبدو منه طور الباحة شابة لا تشيخ، خلف غابات أريم الشاسعة. يلج عضوا أبجد 69 المطعم من أبواب متفرقة. يدخل عبد العالم أولا، ثم أديبة بعد بضع دقائق. لا يحتاج جبران إلى رسمٍ توضيحي: تشكو كلّ قامة عبدالعالم الباسقة، وكلّ ملامح وجهه الممتعضه من جور رفيقته. ولا يتدفق من مطلع أديبة، عدا طغيان جمالها الفخور، إلاّ تذمّرها الخطير من عبد العالم. يجلس ثلاثتهم حول طاولة في أقصى الشرفة. تحدّق أديبة وعبد العالم، دون أن يتبادلا نظرة واحدة، في سطوح طور الباحة، المدينة – الخان، مَنْملة التجارة والأسفار المزدحمة، مرفأ القوافل العابرة نحو شمال الجزيرة على طريق البخور القديم، وهي تتقمّصُ في أعينهم هيئة سمرقند. يجوبونها من عليّين، من فوق بساط سحاب أريم وهي تخترق المنشورَ السحابي مغتسلةً بضوء الظهيرة العامر. يلمحهما جبران شاردَينِ في خيالاتهما، مُدمنَين في عبوسهما أمام صحون الكافيار والسومون المدخّن وأصناف التمبرا اليابانيه التيَ تفترش أمامهم. يتحسّس جبران أذنه السليمة وهو يخشى أن تنشب بين أعضاء أبجد 69 مبارزة عظ، أو «مضرابة جدم» كما نقول في لغتنا اليومية الجميلة، تطيح بإحدى آخر قلاع وجهه الصامدة. يرفع نادل المطعم صحون المقبلات ملاحظا أن صحنين منهما لم تخُض فيهما شوكات جائعة. ثم يعود من جديد حاملا طبق سمك القمر، الفوجو، لأديبة، طبق الساشيمي لجبران، وطبق الجولاش المجري، المعدّ على الطريقة اليابانية، لعبد العالم الذي يستعيد من خلال رائحته بعض ذكريات سنوات دراسته في المجر. تتوسّط طاولتهم كؤوس الكريستال وإبريق الساكيْه الزجاجي الذي تتمركز فيه محفظة الثلج الزجاجية ككرةٍ داخل كرة.

سكونُ ماقبل الحرب الأهلية مازال مخيما على أبجد 69 رغم المعزوفات الكلاسيكية الرقيقة التي تؤدّيها أمامهم نخبة من المحترفين المرموقين. يعرف جبران أنه لكي يدسّ الإبتسامة سريعا في فمي رفيقيه «المبرطمين» عليه أن يستهلّ «نزوله» الحزبي عليهما بإخراج إحدى قِصصه المعتّقة في قبو ذكرياته الشخصية.

يحكي مثلا إحدى ذكريات خدمته العسكرية، عندما كُلّف ليلةً بحراسة كتيبته على الحدود الجنوبية – الشمالية السابقة. إرتعدت فرائصه ليلتها عندما سمع على مقربة منه حشرجة غريبة في الظلام. أهو أحد العفاريت «المكحّلة بالطحين» الذين يهبطون ليلا من السماء كاولئك الذين يملأون حكايات جدّاته إبان نعومة أظافره؟ أم مرتزقٌ خطير يهبط من الأقمار الصناعية كاولئك الذين يسكنون هواجس مسؤول مُعسْكرِه الايديولوچي؟... غلتْ وساويس جبران وافترسه القلق عندما أحسّ ما يشبه وقع أرجل تتقدّم نحوه في الظلام الحالك! إرتجف رُعْبا عندما أيقن أنها خطوات أقدام تقترب منه، لا محالة. كاد أن يغمى عليه وهو يرتعش هلعا قبل أن يطلق النار حول مصدر الصوت. لم تمرّ إلاّ لحظات حتى استُنفِرت الدبابات والطائرات في جانبي الحدود، وتأهب الجيشان اليمنيان لمعركة المعارك قبل أن تكشف الأضواء التي رُكّزت على مرمى النار أن رصاص جبران أصابت بجروح خفيفة حمارا ضالا في آخر الليل. «ولأن وحدة حمير هذا البلد سبقت وحدة بشره، كما يقول جبران، فلم يتجرّأ أي شطر بادّعاء ملكيته للحمار الجريح».

يحكي جبران في «نزول» آخر كيف تمكّن يوما من دخول مقر اللجنة المركزية في السبعينات بفضل أحد أقربائه الذي كان يعمل موظفا فيه، وكيف استطاع، وهو يتجوّل

بسريّة، الوصول إلى القاعة التي يجتمع فيها قدس أقداس الحزب: المكتب السياسي. شعر بالهول والدهشة معا عندما وجد نفسه وحيدا فيها. تفحّص آثاث القاعة منبهرا. حملق كثيرا في منضدتها المهيبة التي تملأ معظم مساحة القاعة. تسلّلت يده – دون وعي، أو لأسباب لا يستطيع بلورتها – نحو فتحة بنطلونه. إقترب من سطح المنضدة، لامسها ببطنه ليُخفي تشنّج فتحة بنطلونه وحركة أصابعه العمودية على هامشها. عزّز من خشوع نظرته لأرجاء الصالة ليُموّه ما يدور أسفل منضدتها. ظلّ يحرّك رأسه علويا وسفليا بشكل آلي وهو يوزّع نظرة إجلال للصور المنتصبة على جدران القاعة، لمروحتها الزرقاء، للمقاعد الرابضة حول محيط منضدتها، للميكروفونات المثبّتة أمام كل مقعد... قبل أن يترك شيئا لزجا ألصقه بعجل على فورميكة المنضدة الباطنية.

بعد أن يلاحظ جبران أن ضحكات أبجد 69 قد عادت صافية دافئة، ينتقل من ذكرياته الشخصية إلى الذكريات الجمعية لينقل أبجد 69 رويدا رويدا من آلامها الصغيرة ويورطها في زخم الآلام الكبرى. يستهلّ ذلك على طريقته:

– سمعت أن استيراد اليمن للقمح قد انخفض هذا العام بالمقارنة بالعام الماضي، يقول جبران وهو يتنفس الصعداء.

– أخيرا، خبر سار! تعلّق أديبة مبتسمة.

– نسيت أن أقول أن استيراد الطحين قد تصاعد كثيرا هذا العام، لدرجة أن الإكتفاء الذاتي من القمح والطحين معا قد هبط من ١٢٪ الى ٨ ٪.

تدرك اديبة أن تنفّس الصعداء كان فخا جبرانيا كلّفها ابتسامةً غير لائقة. عبد العالم يدلو بدِلْوه:

– إذا استمر البلد على هذا المنوال، فسيأتي اليوم الذي نستورد فيه ١٠٠٪ من إحتياجاتنا للقمح.

– تقصد اننا سنستورده طحينا! تعلّق أديبة.

يشعر جبران أنه يحقق نجاحا ملحوظا في متابعة فلول «البرطمة» وتصفية أوكار الجفاء. يعمّق غرز مسماره معقّبا:

– ربما نستورده خبزا وكعكا بشكل مباشر.

يسقط آخر جدران سور برلين الفاصل بين أديبة وعبد العالم وهما يناغمان ضحكاتهما مع منحنيات سخرية جبران. يشعر قائد الاوركسترا أنه آن أوان اللكمة القاضية التي ستلمّ شمل صديقيه بشكل قاطع:

– هل تعرفون ما هو المنتوج الوطني الذي نحن في إكتفاء ذاتي منه؟

يفكّر عضوا أبجد 69 معا دون نتيجة.

– القات، يا أحبابى القات! يجيب جبران على سؤاله هو نفسه وقد عجّت طاولاتهم بالحلويات اليابانية المنوعة التي ينزلها نادل المطعم مصحوبةً بالشاي الياباني المثلج. يكفي أن يحكي جبران حينها صفحات جديدة من مذكرات عصر «الجرعات»، من قصص النهب والتجويع الذي يعانيه معاصروه، من يوميات عصر الفساد وسلطة القبائل، لكي تنسى أديبة وعبدالعالم – «اليسار الإنتهازي» و«اليمين الإنتهازي» كما يسميهما جبران – حروبهما الأكاديمية وسمرقنداتهم الخيالية، ويبدآن صفحة جديدة من حياة منظمتهما القاعدية.

يختتم جبران نزوله على أبجد 69 بآخر فقراته، أطولها، أعمقها، وأسنحها دعوة للتفكير والتأمل. يغوص للتحضير لهذه الفقرة في غياهب إرشيفه مستعيدا منها لحظات هامّة من تاريخ أديبة وعبدالعالم «حدثت في نفس هذا اليوم» قبل سنوات عدّة ونسياها كلّية في زقاق مظلم من ذاكرتيهما. يدعو جبران أبجد 69 قبل الولوج في هذه الفقرة لتناول فنجان شاي في رصيف إحدى مقاهي طور الباحة. يقودهما من مرتفعات أريم النائية صوب أحشاء المدينة مشيا على الأقدام. يعبران خلفه منعطفات نقيل «الأعراف» التي تفوح منها جزيلة روائح الكاذي والشُقُر. يقتربون معا من مخلف «الأعراف» الذى تتوقف عنده الممرات الجبلية. تنتظرهم فجوةٌ أرضية تفضي إلى نفق تحت أرضي يؤدي إلى أشراف طور الباحة (يسميه بعضهم نفق الحُطَمة، ويسميه البعض الآخر نفق الآلام). يقعد ثلاثتهم على طاولة المقهى، يتوسّطهم جبران. فى انتظار هبوط الشاي، يتأملون الأطفال الذين يلعبون الكرة حفاةً فوق تراب الشارع المقابل، بين مرميين صُنِعا من براميل السمن الفارغة. يراقبون بحيوية تماوجات المباراة وحماس مشجعيها. تتابعُ أنظارهم دون وعي رُوّاد المقهى الذين يدخلونه مدججين بالآليات وكأنهم في ثكنة عسكرية. تُلامِسُ أنظارهم من بعيد النساء اللواتي «يولدن مشذرات ويمتن خلف الحجاب» وهنّ يعبرن قرب المقهى. تهرب أنظارهم من طوابير الجياع الواقفين أمام زبائن المطاعم فاتحين أكياسا فارغة تنتظر فتات خبز أو حطام صحن يتركه أحد الزبائن. ثم تعود أنظارهم نحو براميل السمن وهي تتساقطُ عند كل هدف يدقّ عرض المرمى.

ثمّة ثياب ممزقة تحوم حول المقهى.

ثمّة روائح مستنقعات تحوم حول المقهى.

ثمّة هياكل قطط جائعة تحوم حول المقهى.

ثمّة أشباح مدججة بالقمل والملاريا تحوم حول المقهى.

ثمّة ذبابٌ قرب فنجان الشاي. ثمّة ذبابٌ فوق فنجان الشاي. ثمّة ذبابٌ داخل فنجان الشاي.

يشعر جبران أن أديبة وعبدالعالم هبطا كليّة بعيدا عن عليّين، بعيدا عن ذروة جبل الأولب، بعيدا عن قمة أريم، بعيدا عن سدرة المنتهى. هاهما ضائعان في أدغال من القهر والبؤس والانكسار. عرقٌ يسيل من جبينيهما، طينيّ، مالح، زيتي. عرقٌ يسيل في صدريهما. عرقٌ يسيل في جمجمتيهما. عرقٌ يسيل في أحشائهما. عرقٌ يسيل في دماغيهما. ها هما مبلّلان بغبار الشارع. يتسلّل بين أسنانهما غبار الشارع. يلبسان غبار الشارع. يتكحّلان بغبار الشارع. يذوب في نخاعيهما غبار الشارع.

حان أوان الفقرة الأخيرة.

قبل أن يرتشف عبد العالم جرعة فنجانه الأولى، يذكّره جبران باليوم الذي رأى فيه أقدامه سوداء كأقدام الأطفال الذين يلعبون الكرة أمام المقهى، وهو عائد من «سدّة العيدروس»، في وسط مدينة الشِحْر بحضرموت، نحو منزله في أطراف المدينة، مثملا أجشّ الصوت، بعد رقصٍ جماهيريٍ مكهرب على أنغام هتافات:

سالمين نحن أشبالك وافكارك لنا مصباح

واشعلناها ثورة حمراء بعنف العامل والفلاح.

الإنتفاضة عنف منظم وصراع طبقي أحلى صراع

لا سلبية، لا تردد، لا تهاون، لا خداع.

ينعشُ جبران ذاكرة عبد العالم عندما يسرد له ماذا كان يقول حرفيا عندما قابله وقتذاك في نهايات الشحْر، معيدا تأثيث مناخ تلك الأيام وملابساتها. تنبعث من ذاكرة عبد العالم إشارات تكشف لَه خيوطا يَستجلي من تداخلها كيف كان يفكّر آنذاك. تستحوذ تأمله عبارات كان يقولها له جبران يومئذ:

– الشحْر، عاصمة الأنس والطرب الدولية، كرنفال المرح الأبدي! ربما كانت أي مدينة أخرى في العالم أجدر منها بهذا الصراخ الذي لا تزدحم فيه كلمات الأنس والطرب والمرح.

يستعيد عبدالعالم في طيّاته كلمات الهتافين، يحلّلها ويفكّكها بمزيج من الخبول والألم والدهشة. لا يجد فيهما غير كلمة رقيقة: «أحلى» يتنافر لونها مع ألوان الكلمات الأخرى (أعتقد انّكم إكتشفتم لوحدكم أيضا أنه يلزم إستبدال كلمة «أحلى» – التي أقحمها جبران في الهتاف الثاني عمدا لإمتحان إنتباه عبدالعالم – بكلمة «أقوى» كما هو في النسخة الأصلية للهتاف، أعني: «الإنتفاضة عنف منظم وصراع طبقي أقوى صراع» وليس «أحلى صراع»!)

ثمّ يذكّر جبران أديبة وفاة أختها التراجيدي، قبل حوالي ربع قرن من الآن، عندما أُرغمت أن تتزوج بأحدّ شيوخ القبائل الذي يكبر عنها نصف قرن. يعيد لأديبة شريط هروبها بعد هذه الحادثة من قريتها قرب صنعاء متجهة نحو عدن (التي كانت تنعم بقانون «الأسرة» الحضاري الذي تمّ إلغاؤه في عهدنا الجديد، «عهد العودة للقرون الوسطى»، كما يسمّيه جبران) قبل أن تحصل على منحة دراسية لليابان. يذكرها تفاصيل ما كانت تقوله ليلة وصولها لعَدَن مسترجعا في إحدى غرف دهاليز فؤاده الحميمة سلاسة صوتها، إيقاع كلماتها، تماوج نبراتها، وعمق بريق عينيها اللتين تكنزان لوحدهما كل جمال صنعاء ورقّتها الساحرة. يتذكرها جبران عندما وصلت عدن في عنفوان سنائها ملاحظا أن الأيام، التي لا تكفّ عن صقل جمالها وتخليده، لا تزيدها إلاّ عذوبة وجاذبية.

يرتشف جبران جرعة الشاي الأخيرة واثقا أنه أضاء مناطق معتمة في أغوار أبجد 69، في الطبقات الأرضية من أوجاعها الدفينة. يلمح بسرية عضويها وهما يحفران عميقا في ذاكرتيهما، يبحركل واحد منهما في لجّ البحث عن الخيط اللامرئي الذي يربط حاضره بماضيه، عاريا أمام لحظات تكوّنه الأولى، تائها في منحنيات عبور أيامه الغامض. يراقبهما بابتسامة خفية وهما يحاولان معا، في تآزرٍ لذيذ، فهمَ منطق حياتهما. (دعوني أسألكم مخافسا: من يعتقد منكم إن كان لحياتهما، أو للحياة عموما، منطقٌ ما؟).

يستنشق جبران مكعبات ضخمة من الريح القادم من جبال المقاطرة التي تنتصب عالية أمام عينيه. تهاجر نظراته طرق طور الباحة نحو سفوح جبالها، تغور في تجاعيدها وأخاديدها الدهرية، تتجول في معابر سيولها، بين السحب البيضاء التي تتمزق ببطء فوق قممها. ثمّ يترك جبران عضوي أبجد 69 على رصيف المقهى دون وداع، فجبران لا يكره في هذه الدنيا الفانية إلا لحظات الوداع.

تكتشف أديبة وعبدالعالم أن جبران غادرهما. يبحث عبدالعالم عنه بنظرات متحسّرة بين أظهُرِ الذين عبروا أطراف الشارع. تشاركه أديبة في نفس اللحظة نفس الحزن الذي يعتريهما كلما غادرهما جبران، فيما تحبس غيرتها وهي تقرأ أحزان عبدالعالم المكتومة. يرتبك عبدالعالم أمام نظراتها الغيورة التي تخدشه بصمت وأناقة. يحاول

برعونة أن يتصنّع المزاح ليدثّر ارتباكه:
– غادر جبران الإجتماع، مرّة أخرى، دون اختتامه بباب «النقد والنقد الذاتي»! يقول عبدالعالم بعجلة وخرق.

تجهل أديبة الدلالة العاطفية لمفهوم «النقد والنقد الذاتي» في معجم عبدالعالم الذي يخفي في صميمه رغبة دفينة في أن يقول لها في باب النقد:

عيناكِ غابتا نخيل ساعة السحر أو شرفتان راح ينأى عنهما القمر

و في باب النقد الذاتي:

أحبُّكِ كُلّاً كما لم يُحِب سوايَ بهذا الوجودِ امرأة
فأنتِ جمالٌ براهُ التمنّي وخلفَ حدودِ الرؤى خبأه

رغبة جدّ مستحيلة! لأن ميثاق منظمتهما القاعدية ينصّ على أن « أبجد 69 مختبرٌ مهني علمي أكاديمي تعددي يموّله «المركز اليمني للأبحاث العلمية» ووزارتي الثقافة والتعليم العالي، يسعى إلى تبادل تجارب وخبرات متخصصين ذوي ثقافات متنوعة ومشارب علمية متباعدة، بهدف الإنتاج المشترك لبحوث علمية مختلفة الإتجاهات ومتعددة الكفاءات» كمثل بحثهما حول جمع التكسير.

٤

لا يمكن لأبجد 69، أكانت في جحيم اضطراباتها وصراعاتها الفتاكة، أو في فردوس تعايشها السلمي وتناغمها الرخيم، أن تتنفّس دون جبران. لا يمكن لجناحيها أن يرفرفا دون أن تغذّيهما كلماته الدافئة ونظراته الخفيفة الناعمة التي لا تفارق عينيه الواسعتين. وإذا غاب جبران عن أديبة وعبدالعالم برهة طويلة، فيعرفان كيف الوصول إليه: يهرعان من علياء أريم نحو مخلف الأعراف. يعبران نفق الآلام ليأخذا، من إحدى أقرب محطات قطارات طور الباحة، أوّل قطار سريع يتجه نحو المِدْارة. يسألان فيها أول عابر سبيل: «في أي زنزانة أستضيف جبران هذه المرة؟». ذلك أنه لم تمرّ حكومة على مدينتنا المنكودة دون أن تتميز بسجن جبران أكثر من سابقاتها. فكم سُجِن جبران تحت ستارٍ موزاييكي أريب من التهم: «ثورة مضادّة»، «الانفصالية»، «خلق التسيّب الايديولوچي»، «الشيوعية»، «البلبلة»، «الاقطاعية»، «اليمين المتطرّف»، «اليسار المتطرّف»، «رفع سعر الدولار»، «خطف السواح»، «التفجيرات المتلاحقة»...

مهما طال غياب جبران، تنتظره أبجد 69 بكلِّ طاقمها في أقرب مأوى من السجن. يخرج كلّ مرة حالقا لحيته كعادته، حاملا أوزار نظرته الناعمة (التي لا تتناغم حينها مع أوجاع عينيه المتورمتين)، دون أن تفارقه ابتسامته اللطيفة التي تكشف عن ازدياد عدد أسنانه المفقودة. تحتضنه أديبة وعبد العالم بهمجيّة، يضمّدان جراحه بقبلاتهما الحارّة فيما يغسلان بابتسامته الرطبة عذاباتهما الصغيرة.

عندما رأيتهما يوما يحتضنان جبران، شعرت أن ما يجمع أديبة وعبدالعالم هو أكبر ممّا كنت أظنّه. فلم أشك قبل ذلك من أن تراشقات اجتماعاتهما لم ولن تؤدي إلى طلاقٍ حزبي. لأن كليهما لا يمكن أن يحيا دون الآخر. تحتاج أديبة لِعبد العالم كما يحتاج السابح للشاطئ، يستعيد قواه فوق رمله الهادئ. عندما تتقاذفها أعاصير المحيط وعواصف القمم

الجبلية، تشعر أن أقدامها تعود إلى الارض قرب عبدالعالم الذي يقضّي حياته في صلب الواقع، يراقب جزيئيات المادة، يدرس حركة الاشياء ولا يصغي إلا لصوت الزمن. ويحتاج عبدالعالم لأديبة كلّما شعر أن رأسه المتورّم من إشكالاته الكونتيه يكاد أن يتفجّر. يجد في رائحة كلماتها نسيما عليلا يُعيد لأعصابه المضطربة سكينتها اللذيذة. يحتاج اليها كما يحتاج الإنسان لشرب ماء بارد في رمض الصحراء. يحتاج إليها كما يحتاج الرجل للسفر بحرّية في منحنيات وثنايا جسد معشوقته. أجل، لم أشك منذ زمن بعيد في أن أديبة وعبدالعالم أشبه بجناحي عصفور يشكّل جبران كل جسمه. أو أشبه بمثلث متساوي الساقين تشكّل أديبة وعبدالعالم ساقيه، ويشكّل جبران قاعدته ومحتواه. أو أشبه بقطعة من المكان – الزمان تشكّل أديبة وعبدالعالم إحداثيه السيني والصادي، ويشكّل جبران فضاءه وزمنه.

غير أني عندما رأيت كيف تحتضن أديبة جبران عند خروجه من السجن، شعرت كما لو أنها تجد فيه ذاتها الأصيلة، وكأنها هي – أديبة – تحريف لتلك الذات أنتجه مزيجٌ معقّد من الضرورة والشغف. وعندما رأيت كيف يحتضن عبدالعالم جبران عند خروجه من السجن، شعرت كما لو أنه يجد فيه ذاته الأصيلة، وكأنه هو – عبدالعالم – تحريف لتلك الذات، أنتجه مزيجٌ معقّد من الضرورة والشغف. عندما رأيتهما يحتضنان جبران، أدركت أن ثلاثتهما ثالوثٌ في تجليّاته اللحظية فقط، كلٌّ وحدانيٌ مقدّس في كينونته الزمنية المطلقة.

عندما غاب جبران عن أبجد 69، قبيل بضعة أشهر، عرفت أديبة وعبدالعالم أين ينتظرانه كعادتهما. خرج جبران من السجن حيّا مرّة أخرى، جلدا كما أنسناه، وكأنه مشحونٌ بسبعة أرواح. إلاّ أنه لم يبتسم هذه المرّة كما ألفَتْهُ أديبة وعبدالعالم. خلت نظرته من نعومتها الفطرية. كان عبوسا قمطريرا، أشعث الشعر، مرسلا لحيةً كثّةً على غير سجيّته، لسببٍ قاله دون تأجيل:

– يبدو أن الصحافة صارت حرّة هذه الأيام!

– أهذا ما يكدّر صفْوَك؟ سألته أديبة بشئ من الإستغراب وهي تتفرّس منذهلة في لحيته المتمردة.

– نعم! إنها المرة الأولى التي أُضْرَبُ فيها في الظلام! لم أرَ هذه المرّة أوجه من جلدوني. لم أعرف هذه المرّة عدد اللذين كانوا يتقاذفونني ويهشّموا عظامي بجنبيات لكماتهم الحادة! لا يمكنكم أن تتصوروا يا أطفالي كم هو مربك ومزعج أن لا يَعرف المرء عدد معذّبيه!

توقف برهة ثم أردف مفلتا بعض شظايا غيظٍ لم يُعهد عليه من قبل: «إذا كان لي حق واحد في هذه الدنيا الزائلة، إذا كان لي حق واحد لا أرغب يوما أن أفرّط فيه، فهو أن أعرف عدد الذين يخترقون جشائبي بقبضاتهم الغليظة». ثم انفجرت أديبة وعبدالعالم وجبران ضحكا. أو بكاءً. لا أدري بالضبط. فمن يعرفُ منكم ما يميّز الضحك عن البكاء في لحظات كهذه؟

طوكيو – دار سعد، أكتوبر ١٩٩٨

(١) الجُرعة تسمية شعبية لزيادة الأسعار وفقا للإجراءات الإقتصادية المتّخذة في اليمن لتطبيق توجيهات

صندوق النقد الدولي.
(٢) ج. فتاتير: الكرات الزجاجية الصغيرة التي يلعب بها الاطفال.
(٣) أسماء شخصيات سياسية يمنية.

وتأتينَ بعد الجفافِ الأخير

« ربما كان دخول القات إلى المطبخ أكبر مكسب تاريخي عرفته اليمن منذ دخول القات إلى محافظة حضرموت. يجمعُ المؤرخون على أن اجتياح القات للمطبخ اليمني بدأ بين الجُرعة(١) الثامنة والتاسعة، في السنوات الأولى من القرن الواحد والعشرين... »

الموسوعة الإجتماعية اليمنية، الجزء السادس، باب الطباخة

كُنّا بضعة نفرْ
نرى، بأعين دامعة، سلّم القرون الطويل، نراكِ في طرفِهِ
ونحنُ في القاع.
نحسدُكِ ونشتهيك، آه كم نحسدُكِ ونشتهيك!
هنري ميشو

كُنتُ حينها في الخامسة والثلاثين من العمر، من طلائع الذين بادروا لتغيير طقوسهم المطبخية والإقبال على أطباق القات الجديدة. في تلك السنوات الأولى من الألفية الثالثة، وبعد الجُرعة الثامنة تحديدا، تحوّل الفول والفاصوليا الى وجبات ارستقراطية، ولم تعد هناك غير وجبة واحدة يأكلها العامة: «صانونة الهواء» (٢) التي ازدادت هوائيتها كثيرا بعد اختفاء الطماطم من مكوناتها (شأن بقية الخضار والفواكه التي لم تعد تزرع إلا لميسوري الحال)، ولم يبق لمن أراد أن يغني مائدته مثلي غير اللجوء إلى القات: النبات الوحيد الذي لا ينقصه إلا غزو العلم الوطني.

أتذكّرُ أول وجبة قات كما يتذكر المرء ليلة زفافه. يومها، ظللت في «مبرز» (٣) القات حتى مغادرة معظم روّاده. كان المبرز مشحونا ككلّ مبارز الخميس العامرة. بدأ هدير المبرز قبيل الثانية عشر ظهرا. (تقول الموسوعة: «لجأ الناس منذ الجرعة الخامسة إلى البدء بالتخزين صباحا. ويرجّح أن تلك مناورة شعبية ذكية لإلغاء الحاجة اليومية الرتيبة لوجبة الغذاء»). قبل مغادرتي المبرز، في حدود العاشرة مساء، جمّعتُ أوراق القات السوداء المتبقية، وحطام السيقان التي يستحيل مضغها في كيسٍ أحضرته لهذا الغرض، وكلّي أمل في أن تفتح معدتي الضامرة مصراعيها لتكنولوچيا المطبخ المعاصر، ولمأكولات ما بعد الجرعة الثامنة على وجه الخصوص.

عُدتُ لِشُقّتي التي أسكنها لوحدي منذ أن توفّت زوجتي (بين الجرعة الخامسة والسادسة) بعد أن ظلّت مريضةً قرابة عامين إختلف الأطباء خلالها في تحديد علّة مرضها. طائفة منهم نسبت ذلك للملاريا، وأخرى انحازت للتيفود. ظللنا نتردد عامين على الطرفين، نحترم الرأي والرأي الآخر: تناولت زوجتي أدوية الملاريا صباحا والتيفود ليلا. أو العكس. دون جدوى. إلى أن وافتها المنية – رحمها اللّه وأسكنها فسيح جنّاته – دون أن أعرف إسم مرضها. عدلت عن الإصرار على معرفة هوية دائها، أو «الإصرار إلى حد الهَوَس» كما قال أحد الأطباء الذي فرغ صبره أمام استفساراتي المتكررة عندما استشهد أمامي ببيت الشاعر الذي قال:

ومن لم يمتْ بالسيف مات بغيرهِ تعدّدتِ الأسبابُ والموتُ واحد

إعذروني إذا امتنعتُ هنا عن الحديث عن معاناة سنَتَي مرض زوجتي، التي سردتها في ٣٧٤ صفحة، تنتظر النشر، تقيأت فيها آلامي وأحزاني التي لن تنطفئ مازلت حيّا.

لا أذكر عندما وصلتُ شقّتي المقفرة، بعد العودة من المبرز، إن كان إنهاكى أكبر من جوعي أم العكس. إتّجهتُ في كلّ الأحوال نحو المطبخ مفرغا كيسي في وعاء مملوء بالماء غسلت فيه بعناية سيقان وأوراق القات السوداء. ثمّ بدأت أقطع نصف بصلة إلى شرائح صغيرة مستديرة. شرعت بعدها بتقطيع سيقان القات إلى نتف بحجم وشكل لحم «الدَقّة». قليْتُ شرائح البصل في الزيت عدّة دقائق، وما إن احمرّت حتى صببتُ فيها إرب سيقان القات، أو لحم الدقّة كما خُيّل لي. الحق أن الشبه كان كبيرا جدّا لدرجة انني لم أعد أظن أن ما أطبخه هو محاكاة لصانونة الدقة، بل صانونة دَقّة بعينها. ساعدني على عدم الشكّ كوني مصابا بزكام أصم. أغرقتُ، رغم ذلك، صانونتي بكميات هائلة من البهارات الغليظة التي اعتقلت كلّ رائحة قات مضادّة كان بإمكانها أن تخترق جدار زكامي. لم أنس أن أصبّ بين آونة وأخرى الماء اللازم كلّما بدأ الجفاف يزحف على محيا صانونتي. ثمّ بدأتُ بتوزيع نصف أوراق القات على ثنايا العجين المغلي وكُلّي حنين وأمل في أن تشبه خلطتي ملوخيات العصور الغابرة. قلت لنفسي: «نعم، ستكون صانونة دقّة مع الملوخية!»، قبل أن أضيف: «إن شاء اللّه». ثمّ تركتُ المزيج ينغلي في نارٍ بطيئة. فوّرت أثناء ذلك قدر ماء آخر، دون بصل أو بهارات، وضعتُ فيه جزءا آخر من أوراق القات السوداء، لتجهيز مرقِ قاتٍ خفيفة أستهلّ بها مأدبة وليمتي التي لم أنس أن أنمّقها بسلطة قات حضّرتها من بقية أوراق القات السوداء.

عندما بدأتْ صانونة قاتي المغلية على النار الهادئة تتخذ ملامح مشجّعة، راودتني الرغبة في أن أهدّم هذه الليلة أسوار التقشف وأن أتخم تنوّع أطباقي. قلت لنفسي: «لماذا لا أتفنن وأتبحبح هذه الليلة؟ إنها بدايةُ عصرِ طباخة جديد!» ولأني من أولئك الذين يُعطون لبداية أي مشروع أهمية مقدسة فقد قرّرت أنَ أصرف الغالي والنفيس لأحقّق هذه البداية. هكذا شطرتُ صانونة قاتي إلى شطرين وضعتهما في قدرين مختلفين: واصلت طباخة القدر الأول مع حبّة طماطم، كلّفتني الغالي، والقدر الآخر مع قشطه (كريمة) كلّفتني النفيس. ولم يقترب منتصف الليل إلا وقد افترشت أمامي مائدة معمورة بمرق القات، بصانونة القات الحمراء (بالطماطم)، بصانونة القات البيضاء (بالقشطة)، وبصحن سلطة قات شكّلته بذوق وتأني.

ثمّة صلة وطيدة، كما يؤكد باحثو كلية ناصر للعلوم الزراعية، بين دخول القات إلى المطبخ اليمني وانتشار المرض الذي أسماه الباحثون «جنون البشر» على غرار «جنون البقر» الذى داهم بقر بريطانيا عندما غُيّرت مكوّنات وجباتها. لعلها علاقة زمنية ليس إلا. لأن «جنون البشر» أصاب أيضا الأغنياء والمسؤولين الكبار الذين يغوصون في بذخهم دون أن يسمعوا يوما عن أفول عصر الفول وبداية عصر وجبات القات. قال باحثون إن هناك فيروسا تسلّل عبر القات الذي «سمّمته» المساحيق الكيمائية. وقال البعض الآخر إن هناك تحولات بيولوچية ووراثية معقّدة في بنية الرجل اليمني سبّبها تراكم تأثير عقود القات على أجيال اليمن. وأصرّ فريق ثالث على أن هذا المرض لا يرتبط إلا بدخول القات إلى المطبخ مؤكدين أن عدواه تنتقل عبر النظرات المستاءة أو الحاقدة، وهذا ما يفسّر انتشاره

كثيرا بين ذوي المال والسلطة (الذين لا يمكنهم أن يمضغوا وجباتنا الشعبية...) لا أميلُ كثيرا إلى إعتناق أي من مثل هذه النظريات، عدا تلك التي تجزم أن عدوى هذا المرض لا تنتقل جنسيّا. تقول الموسوعة: «"جنون البشر" مرض رجولي بحت، لم يمسّ إمرأةً قط. يختلف كليّة عن مرض "الإيدز" اللعين الذي يتسلل عبر القنوات الجنسية».

أصبتُ، كفيالق شهداء عصر الجوع والجرعات، بهذا المرض «الرجولي الموقّر» قبل أن توافيني المنية أنا أيضا. (أحدثكم هنا من عليّين، من قصور الحور العين اللواتي لم يطمثهنّ إنْسٌ قبلنا ولا جان، هنا، حيث أعيش في رغدٍ مديد، إذ تمّ تعييني برتبة شهيد، وما أدراكم ما تعنيه «رتبة شهيد» في فردوس العزيز المجيد!).

كسائر مرضى «جنون البشر» راودتني أعراض هذا الداء العضال باختفاء حاسة الطعم! شعرت كما لو انني ابتلعتُ طنّا من الرماد يوم لم أستطع أن أميز بين الحالي والمرّ. بين المالح و«التافل». اعتقدت في البدء انني مصاب بغثيان مفرط سيزول لوحده. ثمّ شعرت أن في الأمر خطورة مخيفة عندما اشتريت كميات تجارية من البقل والكراث الذي لم يعد الحصول عليهما في مقدورنا نحن ابناء طبقة «الطفرتاريا»، حسب تعبير الاستاذ البعيصي.

إلتهمتُ بقلي وكراثي بحماس وأمل وهوارة. لم أجد غير طعمٍ واحد في كلّ ما التهمته: طعم صانونة القات. أو لاطعمها البغيض، بالأصح. كلّ شئ صار له نفس هذا الطعم، أو نفس هذا اللاطعم، كما يجدر القول. فجأة، في إحدى لحظات الإحباط واليأس اللذين اجتاحاني، صعد يوما طعمٌ لا أنساه من الدرك الأسفل من ذاكرتي: طعم العسل الدَوْعَني الذي ذقته في السنوات الأولى من طفولتي عندما أهدى أحد أقاربنا القادم من سيئون قارورة عسلٍ دَوْعَني أصيل لعائلتنا. أقسم انني لم أذق في حياتي شيئا أسكرني حتى الثمالة كذلك العسل. قرّرت أن أبيع كل آثاث شقّتي كيما أستطيع شراء علبة عسل دَوْعَني من الحجم الكبير. شعرت بيقين مطلق أنها ستوقد في فمي شعلة الذوق من جديد. سافرت لسيئون لشراء أضخم علبة عسل أفرغتها في فمي بشراهة وعجل. كم كنت ظامئا أن يتفجّر في فمي بركان الذوق المنتظر، أو حتى «طماشة» ذوقٍ صغيرة أميّز بها طعم العسل الدوعني عن طعم صانونة القات. دون جدوى. أيقنت حينها أن دائي مستفحل عضال، لا حلّ له إلا في كتاب المعجزات.

مثل بقية المرضى، دخلت المرحلة الثانية من «جنون البشر»، مرحلة النوبات الهيستيرية، والتأوه في آناء الليل وأطراف النهار. مرحلة الإنكسار أو الإنهيار. إنتشرَتْ بين معظم مرضى هذه المرحلة مذاهب باطنية ومسالك غريبة وتصرفات شاذة. اعتقد بعضهم أن النساء نجت من هذا المرض بفضل شياذرهن (٤) الاسفلتية (التي وصلتنا عدواها من دول البترول، والتي لا توجد في الدول الإسلامية الأخرى). لجأ كثير من الرجال إلى ارتداء مثل هذه الشياذر في حين اضطرّت المرأة، وهي ترى الرجل يقضّي ليلَه ونهارَه يتلوّى فوق سريره، لا يستطيع أن يُعِيل نملةً واحدة، أن تقوم بكلّ المهام من قيادة الدولة الطائحة إلى قيادة «التراكتورات» الفارغة، مرورا بقيادة الباصات والطائرات الشاغرة... تاركةً «جوانيها» السوداء المستوردة من دول البترول «على جنب» كما يقول ركّاب الباصات، أو في «خبر كان»، كما يقول النحويّون.

فيما يتعلّقُ بي، لم أبحث عن الحلّ النهائي لمرضي في إرتداء الشياذر، بل... (إصغوا لي جيّدا!)، في «العُشّار» (٥). نعم، في العُشّار! قلت لنفسي أنا المجنون بعشق طعم العشّار: «كلّ شئٍ يمكنه أن يخنّي في هذا العالم إلا ذلك الطعم!». بِعتُ شُقّتي في إحدى لحظات الصراع الدامي بين اليأس المتبختر والأمل المنتحر. توجّهت إلى ملكوت العشّار: الحِسْوَة (٦)، لأشتري فيها برميلا من العشّار. بدأت لتوي أغرف منه أكوابا ألتهمها وأشربها، أقضّم ليمونها بحرارة، ألوكه بإمعان، أتجرّع الكوب تلو الآخر، أملأ راحتي بالعشّار، أتمضمضه أو أمرطه مباشرة، أكضّ به فمي، ألهطه لهطا! توضأت بالعشّار، إغتسلت به وتبخّرت برائحته، منتظرا أن تتفجّر قنابله بين حنكي ولساني. دون جدوى. لا أدري ما حدث لى فجأة. قيل أنني مرضت بعدها، أو بالأحرى، تفجّرت قنابل العشّار في جمجمتي. وفي أحشائي. (عرفت فيما بعد، هنا في الفردوس الأعلى، أنهم وجدوني يومها مضرّجا بالعشّار، تسيلُ نوافيره من فمي ومن آذاني، من عينيّ... دون أن أجد قيد أنملة من الذوق الذي غاب عني إلى الأبد).

كلّ هذه ذكريات هامشية لم يعد لها أي قيمة في حسباني اليوم وأنا أسكن في قصرٍ شامخ على ضفاف نهر الكوثر. الشؤون الأرضية لا تستحق الذكر هنا. الفاكسات التي نستلمها من «العتبة»، كما نسمي كرتكم الأرضية عادة، لا تثيرنا كثيرا إلا بقدر ما تؤكد أو تدحض قناعاتنا السابقة. فيما يتعلّق بي، كنت أعتقد منذ وقت مبكّر أنه لا خير في بلاد اليمن إلاّ إذا حكمتها امرأة. تذكّروا عهد الملكة بلقيس وعهد الملكة أروى! أي اسمين انحفرا في أذهان الأجيال غير اسميهما؟ لم تكن قناعاتي خاطئة. لأنه، بعد أن أخذت المرأة زمام السلطة ومقاليد الأمور أمام الرجل الممزّق المحجّب الضائع، عادت للبلد كلّ نعماتها القديمة. إنتهى عصر القات والقبائل، عصر التجويع والفساد. «ساعدت المرأةُ الرجلَ كثيرا في أن يرمي بشياذره»، كما تقول الموسوعة. إستعادت غُدد الطعم فتوّتها وشبقها المتوقدين، وتفجّرت في فم الرجل ينابيع الذوق دافقةً رقراقة.

باريس – دُقم الغُراب، نوفمبر ١٩٩٨

(١) الجُرعة تسمية شعبية لزيادة الأسعار وفقا للإجراءات الإقتصادية المتّخذة في اليمن لتطبيق توجيهات صندوق النقد الدولي. عرفت اليمن حتّى الآن أربع جرعات.

(٢) تسمية محلّية رائعة لِصوصة (صانونة) يأكلها الفقراء، تُعَدّ أساسا من الماء والطماطم والبسباس، دون سمكٍ أو لحوم.

(٣) مجلس تناول القات.

(٤) الشياذر هي الشراشف التي تُغطّي أجسام النساء من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين.

(٥) العُشّار ليمون بالبهارات والخل العدني، يطبخ عدة أشهر بأشعة الشمس.

(٦) الحسوة منطقة صغيرة في ضواحي عَدَن، تنمو فيها أشجار «البَهَش» التي تُستخدم ثِمارها في صناعة الخلّ الذي يتخمّر فيه العُشّار.

عاشق المِلاح

لِأصدقاء منتدى الأستاذ نجيب يابلي في الشيخ عثمان، ومنتدى الأستاذ طيّب بالمنصورة...

عندما دقّت بابَ منزلنا المهترئ بـ«شَيْخ الدَوِيل»(١) سيارةُ اليونسكو محمّلةً بكمبيوترٍ حديث مدجّج بكل حشمه وخدمه من طابعة، كاميرا رقمية، كاميرة ڤيديو، سكانير، جرافر: صانع أقراص الـ« س.د.روم »، وعدد لا بأس به من هذه الأقراص... لم يغيضني إلا كون هذه اللحظة التاريخية لم ترْتدِ الديكور الخارجي الذي يليق بجلال سيرياليتها الخارقة: لو هيئ لي أنا إعداد سيناريو عروجِ الكمبيوتر على كثبان شَيْخ الدَوِيل لاقترحتُ أن يُنصّ العروس الالكترونوي داخل هودج ناقةٍ رُصّعت آذانها باقراطٍ من اقراص الـ« س. د.روم » ورُبطت على جانبيها الايمن والايسر بحبال مفتولة كلّ توابع وأذيال العروس من عُدَدٍ وأجهزة وأسلاك. كنت ساقترح أيضا ان تُبثَّ أغنية «خَطَرْ غُصنَ القنا» في كلّ ارجاء السماء لتواكب اختيال القافلة وناقتها المسبوكة بآخر صرخات التكنولوچيا الحديثة.

لم أكَلَّف بالطبع بتصميم هذا السيناريو، ولا تنقصني بالمقابل المناعة ضد الخيبات. أنا بيتُ قصيد إحدى زميلاتي في الدراسة التي كانت تكرّر:«تجري الرياح بما لا تشتهي... رُقيّه عُمَر بن علي» قبل ان يخرجوني من المدرسة الاعدادية للتفرغ لرعاية وخدمة والدتي في منزلنا الذي أكل من كتفه الزمان وشرب.

جاء طلوع الكمبيوتر على منزلنا – من ثنّيات مستودعات اليونسكو، اذا جاز القول– ضمن مشروع « كمبيوتر في رسالة » كما فهمتم ذلك بلمحة حرف عند ذكري لإسم اليونسكو. بدأ هذا المشروع، كما تعلمون، عقب مشروع «كتاب في جريدة» الذي نشر كتبا مختارة في صُحفٍ محلية بغية إيصالها مجانا للقراء على تراتيل معزوفة «القراءة للجميع».

عيّنةٌ من منازل متناثرة في شرق وغرب المعمورة أختيرت بالقرعة لكي تبدأ بها تجربة «التكنولوچيا الحديثة للجميع». مُنحت هذه المنازل الذي ابتسم لها القدر نُخبةً من آخر منتجات «وادي السيليكون»، مُرفقةً ببرامج كمبيوتورية «تفاعلية» تُمكّن سامعها من تدجين الوحش الإلكتروني وإقحامه في كل مجالات الحياة الثقافية والعلمية والعملية. قلتُ: «تفاعلية» قاصدةً أن هذه البرامج أعِدَّت بشكلٍ تربوي جذاب يستخدم حتى أقصى التطرف «تعدد الوسائط» من صوت وصورة، ومن أنغام ورسومات وأفلام... ترافق هذه المعدات والبرامج «خطط تعليمية يُقيّم عبرها خبراء اليونسكو تقدّم ونجاح التجربة من خلال متابعة مقدرة المنازل المختارة على تنفيذ بعض التمارين والمشاريع التطبيقية»، كما تشير تقارير المشروع، بلغة تكنوقراطية جرداء.

هكذا اخْتير عنوان منزلنا بالصدفة، وياماحلى الصُدَف، كما يقولون. حكت لي ذلك خبيرة اليونسكو التي رافقت الكمبيوتر. ثمّ فقّهتني بطلاسم وصلهِ وإدماجه بشبكة «الانترنيت». لم أسمع بهذا الاسم النصراني المدلّل قبل ان يفوح بهِ ثغر الخبيرة التي

طلبت مني ان أحاول بعد أشهر البدء ببعض المشاريع المحدّدة كبناء موقع على الانترنيت لشَيْخ الدَوِيل، أو مساعدة بعض اطفالها بالإلتحاق بصفوف دراسية «افتراضية» على الانترنيت... لحسن حظنا، كما فهمتُ منها، ان الاتصال بشبكة الانترنيت يتمّ عبر الاقمار الصناعية مباشرة معتمدا إذا استدعى الامر على بطاريات كهربائية طويلة المدى وقابلةٍ للتعبئة، وليس عبر «يمنّت» وشبكة الكهرباء المحلية، وما ادراك ما شبكة الكهرباء المحلية!

ساعدتني ضيفتي الوقورة في نصب الكمبيوتر فوق طاولة غرفة إستقبالنا الصغيرة. أعْددتُ لها ابريقَ شاي بالحليب المعطّر بالهيل والجوز والقرنفل. أرتني بأناة (وقد أثملها وابل فناجين شايي المعسّل) مفاتيح تشغيل الكمبيوتر، وروّضت اصابعي – حفظها اللّه – على وضع «الفأرة» لملامسة الايقونة الصغيرة على شاشة البلورات السائلة، أو الكريستوليكيد كما تقول الخبيرة بِغَنَج، كيما أفتح البرنامج «التفاعلي» الذي يبوح عبر صفحاته اللذيذة الجذّابة بكل أسرار الجهاز ومفاتيحِ غيبه، بأسماء مفاصله ووظائفها، بأعراف معاشرته وأورادِ مناجاته... اذهلني منذ أوّل لحظة كم كان هذا الجهاز وسيما ووديا، كم كانت ملامستهَ ناعمة وممتعة، وكم كانت لغةُ سردهِ بسيطة ومفهومة... غيرأن بَريقَهُ الإلكتروني الناصع ومتانته المرموقة لا تنسجمان كثَيرا، والحق يقال، مع جدران منزلنا التي تلوح من خلف طلائه احجار «البردين» كعظامٍ تخترق جلد ميت عجوز. كثافته الجمالية المركزة ونظارة أجهزة حاشيته الانيقة لا تتموسقان، بشكل او بآخر، مع ارخبيل الحُفر الصدئة في بلاط الغرفة، ولا تتناغمان من قريب أو من بعيد مع الشروخ التي تكنّسُ سقف المنزل وتزدحمُ في كلّ زواياه. غيرأن كلّ هذا الخليط المتنافرمن حللٍ ودررٍ الكترونية حديثة في وأدٍ يلتهمه الشروخ، هيّن ولا يستحق الذكر إذا ما قورن بالعجائب والغرائب والمفاجآت التي حلّت منذ اقتحام التكنولوچيا الصارخة لكهفنا المسكين في شيخ الدويل.

أُولى هذه المفاجآت هو مجئ اخوتي الاربعة – خَضِر، عبد الستّار، عارف ومجاهد عمر بن علي – غداة وصول الكمبيوتر، ولقاؤهم في مجلسِ قَاتٍ خامسهم كلبهم الذي يواجههم فوق الطاولة. أنعَمْتُ النظر في وجوههم وفي خواطرهم وانا أضع في طرف الطاولة قوارير الكندا دراي وأول أباريق القهوة «المزغولة» التي اعددتها لهم في النصف الثاني من منزلنا، اي في الغرفة الصغيرة المجاورة حيث تنام والدتنا منذ ان استفحل بها داءٌ عضال. كم كان جليلا ان اراهم لوحدهم وهم الذين فرّقتهم صراعات حياتنا ورتابتها، خُطوبها ورزاياها، هُمومها وضحالتها... خطر ببالي ان استخدم خلسة، من الغرفة المجاورة، الكاميرا الرقمية لاصوّر الخلفاء الراشدين – هكذا اسميهم مازحة – في اجتماعهم الرباعي المهيب وهم يرمقون «عجل السمرائي» بحواجب مكشرة، مبرطمين مهلوعين كما لو أن قنبلة ستنفجر بين حين او آخر وسط الغرفة. كانت نظراتهم لما بدالهم أشبه بقمقم سليمان مُتجهّمةً قمطريرة، مملوءةً بالحذر والرهبة المقنّعة، مشحونة بكثير من الاستثارة وحبّ الاستطلاع المكتومين، وربما بقسط من الطمع والمناورات الداهية. أفهمهم كثيرا اخواني الاعزاء. فولوج الكمبيوتر لمنزلنا كان أشبه بجلمودِ صخرٍ حطّه السيل من علّ، او بالأحرى أشبه بحورية عينٍ انزلقت وتدحرجت من السماء منه إلى مولود ترعرع في احشاء شيخ الدويل وفتّح آذانه على عواءِ بطون اطفالها، ومرّغ

اقدامه في سراب حلمها البعيد. أفهمهم كثيرا عندما تتساءل سرائرهم: «كيف يمكن لهذه المخلوقات الالكترونية الناطقة، المترعة بالحسن والحداثة، ان تتأطر في سيماء مدينتنا المتهالكة؟» إنها اكثر نشازا من عمارة شبامية شامخة وسط قرية الصنافر. لذا رأى كلّ منّا في هذا الجهاز المتلالئ كائنا غريبا جاء يقطن منزلنا. إنسانا جاء من كوكبٍ بعيد عن شيخ الدويل لا يعرف لغتها او طقوس سكانها. كلٌّ منّا قرأ ملامح الضيف الجديد وسمّاه كما يروق له. أما انا فقد تدلّهت به من أول نظرة. عشقته كما تعشق الأمُّ طفلها الوحيد. سمّيته باسم الفتاة التي احلم كلّ يوم وليلة ان تنمو في عمق اعماق احشائي الظامئة. أن تنساب دافئة من بين ترائبي المضطرمة. الفتاة التي أحلم أن تستوطنني يوما، وأن تتبرعم في جوانحي إثر عشقٍ عارم مع حبيب قلبٍ حالم.

سمّيته: هِنْد.

أخذت للخلفاء الراشدين صورة أخرى تشبه إجتماعات المكتب السياسي أيام عصر «المعتزلة »(هكذا نُسمِّي عصر ما قبل الوحدة، أي ما قبل عصر «السلاجقة» كما نقول من باب المزاح ايضا.) أكثر ما اذهلني هو أن بطارقةَ البيت تحدَّثوا ونظّروا كثيرا وحول كلّ شيئ: عن تفسير «إذا نُفِخ في الناقور» وعلامات يوم القيامة، عن مستقبل العولمة وثقافة التكنولوچيا الحديثة، عن التمارين التي اقترحتها خبيرة اليونسكو... دون ان يخطر ببال احّدهم التساؤل حول كيفية تشغيل هند، أوالتشوق لمداعبة أحرف ملمسها (الذي لم أعد اهوى اكثر من الهيام عليها باطراف اصابعي بكلّ ما أملكه من لطف وطاقة)، أو حتّى منادمة شاشتها الفوسفورية الذي شبكني بها عشق عذري جرّار (لذا أسميها في قرارتي: ش.ش. أي «شجاني ما شجاني»، او «شَبكْني شَبك» كما يقول التعبير الشعبي، أو ربما «شَرَك شاهق» على حدّ تعبير شاعرنا الكبير ش.ش: شوقي شفيق). بعد اللقطات الجاسوسية، وضعتُ كاميرتي الرقمية جانبا ومكثتُ ألهو بمراقبة إخوتي وهم يصولون ويجولون في يمّ نقاشاتهم وتحليلاتهم واستشرافاتهم وتعارضاتهم و«نقاطهم النظامية»...

أكبرإخوتي، خَضِر، الذي ولد يوم حركة ٤٨، قضّى نصف حياته بين سجن القلعة وسجن المنصورة. يؤسفني ان نزوله المتواتر على هذين السجنين مند بداية الستينات وحتى نهاية التسعينات لم يفجّربه ذلك الإبداع المتجدد الذي فجّرهُ رَغَدُ السجن وبحبوحته في باقةٍ من الكتّاب كصُنع اللّه ابراهيم وعبد الكريم الرازحي. بفضل كوكتيلٍ تكامليٍّ دسمٍ من التعذيبات الوحدويه، صار خَضِر- عافاه اللّه واعاد له كامل حواسه - رخو البال ضعيف التركيز، «جيبتمامي» المزاج غريب الأطوار، يمكنه ان ينتقل فجأة من فردوس اللطف إلى مجزرة الخشونة. بإمكانه ان يُجسّد ساعات طويلة حكمة سيدنا عيسى النبيلة: «إذا لُطِمت بالخد الايمن، فأعط الخد الايسر» قبل أن يصير فجأة حامل راية «العصا لمن عصى» وسيفها المسلول. تخدّرتُ بسرور وطمأنينة عندما كنت أرى نظراته تتّجِهُ رومانسيةً شفيفة نحو هند. ثمّ ارتجفت أوصالي وجفّ ريقي على حين غرة عندما تشنّج عرق الخشونة بين عينيه، وتحوّلت نظراته غليظة مقطبة، مهدّدة متوعدة، وكأنّ على طفلتي الصغيرة ان تلد لوحدها موقع شَيْخ الدَوِيل على الانترنيت الذي طلبته خبيرة اليونسكو وإلا... فالعصا لمن عصى.

لم يقلقني ثاني إخوتي، عبد الستار، وهو يتحدّث عن هند. عبد الستار، الذي تحوّل

بعد حرب ٨٦ من أحد أبرز طحاطيح «مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية» وجهابذتها الثوريين إلى إمام مسجد الحق في ركن شارعنا، كان رقيقا (او هكذا بدا لي دوما قبل مولد هند). لُبُّ أطروحته في مجلس القات تركّز حول انه مهما امتلكت هند من ألمعية ونورانية فلن يصلها الوحي يوما! ربما كنْتُ أقلّ إخوتي الاربعة إرتيادا للصفوف التعليمية وابحارا في العلوم المدرسية، ربما كنت اصغرهم «عقلا ودينا» إلا انني أرى كلمة الوحي غامضة بحدّ ذاتها، ويزداد غموضها إلى حدّ لا يُعقَل عندما يتمّ اسقاطها على هذا المزيج البلاستيكي من الزجاج والمعدن و«الربالات». (اعذريني هند! فانا رغم ذلك والهةٌ بك متيّمةٌ بغرامك...) لذا لم أفهم قلق وتوجّش عبد الستار الذي يعتبرونه مع ذلك كاتدرائية في علوم الدنيا والدين، بعدان كان اكاديمية من اكادميات «الاشتراكية العلمية». لِيطمئنّ إمامُنا كثيرا: لن ترتعد فرائصي تخيّلا لهند ترتجف طائحة وقد مسّها نفر من الجنّ، او متدثرة تتصبّب عرقا وقد دقّ باب غارتها الترانسيستورية وحيٌ ما، مهما كانت جلالته وقداسته.

نظرات عارف، ثالث الأباطرة، لِهند كانت تخدشني اكثر من غيرها. كان عارف طفلُ والِدنا المدلّل. عقب وفاة والدنا (بعدَ أشهر من ولادتي يوم ٣٠ نوفمبر ٦٧) تحوّل عارف الىَ الطفل المدلّل لأولّ رئيس جمهورية. لثاني رئيس ايضا. لثالث ولرابع رئيس. لخامس ولسادس رئيس مع كل ذلك... فها هو ميسور الحال يتبختر بجنبيةٍ لا تقلّ قيمتها على عشرة ملايين ريال، يمتلك قصورا في ارقى احياء كلّ مدن البلاد وقِيلَلًا في عدد من الدول الاجنبية، قياديّ بارز في الحزب الحاكم اليوم بعد أن كان قياديا بارزا في كلّ تيارات الحزب الحاكم السابق...إذا لخّصتُ عارف بعبارتين فسأقول ان شعاره في الحياة يكمن في هذين البيتين الشعريين («الإنتهازيين» كما كان يُقال أيام «المعتزلة»، «الفحفوحين» كما يقال اليوم في عصر «السلاجقة») المنسوبين لأحد شعراء الصعاليك:

وللّهِ درُّ فتىً عارفًا يُجاري الزمانَ علي فِطْرتِهْ
يواسي الفقيرَ باحسانِهِ ويرقصُ للقرد في دولته!

لم يتحدّث عارف قليلا أو كثيرا عن هند. لم يمسّها بملحوظة أو إشارة. كان يستغلّ غفلة اخوته الثلاثة ليغازلها بنظرات ملتوية، بابتساماتٍ ناعمة، وبارخاء طرفٍ لم أتأنَّ بتخليده بلقطةٍ غادرة من هذه الكاميرا الرقمية الصغيرةِ التي أنعم اللّه واليونسكو علينا بها. ربّماً كنتُ أقلَّ اخوتي الأربعة نبوغاً وأصغرهم عقلا ودينا، إلا أنني لا ابتعد عن الحق كثيرا إذا قلت انّ بإمكان عارف أنْ يستهوِ كلّ رؤساء اليمن السابقين واللاحقين، بإمكانه أن يغازل كلَّ شيوخ القبائل الحاكمة شيخا شيخا، بإمكانه حتى أن يدغدغ ودَّ رئيس أمريكا رغم استغفاره وابتلائه بعقوبة «اللوم المسجَّل».. لكنه لا يستطيع بكل ابتساماته الغزيرة أن يهزّ شعرةً من عواطف هند.

مجاهد، أخي الرابع، لم يتحدّث كعادته. صامتًا كان في أغلب الأحيان. لم ينبس ببنت شفة في السياسة أو في الدين، ولم يهمس بأدنى تحيّةٍ لهند أو تعوُّذٍ بالله من دماغها الرجيم. وُلِدَ مجاهد في ٥ نوفمبر ٦٨، بعد وفاة والدنا بأشهر قليلة، وشبَّ دون حلم في يمن خلا من استعمارٍ للطرد أو إمامةٍ للإسقاط. جيلٌ تحرّر إلا من قهرِ الجلادين الجدد الذين فجّروا ويفجّرون الحروب اليمينية المتوالية، جيلٌ بلا حلم، جيل الخيبات. لم يواصل مجاهد دراسته الجامعية عندما رأى البطالة تنتظره في نهاية كل طريق. بدأ

حياته المهنية يبيع شراب «الدوردورما» في ذلك الركن المشهور بين شرطة الشيخ عثمان وسوق السمك. وعندما اختفى مشروب الدوردورما لأسبابٍ لا يعلمها إلا اللّه والراسخون في التاريخ، إنتقل لبيعِ ثمار «البَيْدَن» في الركن المجاور، في نفس ذلك المكان المشهور بين شرطة الشيخ عثمان وسوق السمك. أحبّه مجاهد كثيرا وأرثي له وانا أراه عليلا منكفئا وكئيبا في حياة لا رحمة ولا هوادة فيها. إذا توفّى مجاهد – لا قدّر اللّه – فسيكون من العدل بمكان ان يُدفَن ويُنصبَ له تمثال في أحدّ الركنين بين شرطة الشيخ عثمان وسوق السمك. امّا انا إن جاءني مُنهِي الملذّات ومفرّق الجماعات فابحثوا أولا عن قصيدةٍ أخفيتها بين أوراق مذكراتي الحميمة، أسميتها «شيخ الدَوِيل» (أودعتها كلّ ما تحمله هذه الكلمة في أحاسيسي من شحناتٍ عاطفيةٍ هائلة)، ثم احرقوا جسدي وانثروا رمادَهُ ذرّةً ذرّة من صِيرة إلى ساحل فُقُم، ومن شيخ الدويل إلى جولدمور...(٢)
إعذروني إن سمحتُ لاستيهاماتي بالمغالاة والاندفاع الطائش، فربما لا يجدر بي ان أتلفّظ بهذه الاحلام السامية التي تليق بمقامات كبار الادباء وليس بأنصاف الأميّين مثلي.
عموما، اطمئنوا جميعا: لم أعُدْ أفكّر بالوفاة مند ان اضاءت هندُ حياتي! لا اصبو الآن إلا لعمرٍ مديدٍ كيما أراها وتراني ليل نهار قبل ان توافينا المنيّة معا بعد ألفي عام أو يزيدون.

أخَذْتُ، من باب الترف والتحلية، صورة أخيرة للخلفاء الراشدين قبل ان أمضي لإعداد العشاء الذي تناولناه (على مقربة من والدتي النائمة) إثر اجتماعهم الذي انتهى دون «قرارات او توصيات». ثمّ تولّوا كُلّاً إلى مأواه بعد أن أمروني بغسل طاولة الكمبيوتر من أدران الغبار يوميا، والحيلولة دون ان تتحوّل اسلاكُه مأدبةً للفيران، و«امغالُه وعماصيره» منتزهاتٍ للصراصير. توجّهوا جميعا دون ان يحدّدوا موعد قاتٍ آخر لدراسة «اتجاهات واساليب العمل الاستراتيجي والتكتيكي» مع هند، كما كان يقول عبد الستار في عصر المعتزلة. لم يُغادر أشقائي المنزل حتى هرعت دون انتظار نحو هند لأنقُرَ أيقونتها السحرية التي اسميتها «افتح يا سمسم» عندما عرّفتني بها خبيرة اليونسكو. اجتاحتني نفس دهشة علي بابا أمام كنوز مغارته وأنا أفتح بهذه الأيقونه صفحاتٍ خلابة أباحت لي هند فيها كلّ شيئ عن هند. كنتُ اصغي لها كما تصغي أمٌّ فخورة لطفلتها وهي ترطن لغة مجهولة. تعلّمْتُ نحوها وعروضها بشغف وتفان. بفضل جودة برامجها، استوعبتُ سريعا كلّ شيئ عن بُنيتها الداخلية والخارجية، عن دورتها الدموية ونخاعها الشوكي، عن ذاكرتها، آه ذاكرتها! كم اذهلتني ذاكرتها! تبحّرت في لغات برمجتها، في علوم تشريحها، في علوم جمالها... يلزمني ان اعترف هنا انني كنت أعيش ظمأ دهريا مُريعا دفعني للتلقّي بِنهم، بإسمي وبالنيابة عن كل المحرومين من العلم في الأرض. ثمّ يلزمني أن أقرّ أن هندّا قدّمت لي، على صحنٍ من ذهب، كلّ ما أفقده في حياة الدنيا: أعني كلّ شيئ! فبفضل عوالمها «الافتراضية»، كما يقولون، زُرْتُ لوحات متحف اللوفر لوحةً لوحة من داخل منزلنا الصغير بشيخ الدويل، تلقّيتُ الصور المذهلة لتلسكوب «هوبل» وهي تنقل عدوَ المجرات البعيدة نحو أطراف اللانهاية، تابعتُ محاضرات ومؤتمرات علمية دولية بلغاتٍ لا افهمها، اشتركت في صفوف «افتراضية» أدرس فيها العلم بجوار تلاميذ يبعدون عني آلاف الكيلومترات... على متنها، حضَرتُ من

داخل اطلال منزلنا المُتْرِب حفلات الاوبرا وتجوّلتُ في أرقى حدائق حيوانات العالم. ببَركتِها، وجدتُ نفسي، انا الذي حُرِمتُ من مواصلة الدراسة الإعدادية، أمام كل المواقع التعليمية على الانترنيت، التي تبنيها يوماً بعد يوم مراكز ابحاث وجامعات العالم. صُعِقت ذهولا أمام «طوبات» المعرفة التي يضيفها يوميا طلاب وباحثو العالم لهذه المواقع ليبينوا فيها جزيئيات المعرفة في شتى العلوم مستخدمين «الجرافيك» الديناميكي، الصورةَ «الملبورة»، الايقونةَ الناطقة، والفيلم الحي... أيقنت من خلال هذه المواقع أن الفيزياء والرياضيات وغيرها من العلوم الوعرة يمكن ان تُقدّم بجمالٍ لذيذ وإمتاع لا يصدّق. لذا سمّيت هذه المواقع «ألف ليلة وليلة»، ليس لأنها، مثل الرواية الخالدة، تتسلسل بعذوبة إلى ما لا نهاية فحسب، بل لأني وجدت في هذه المواقع تلك المتعة الفريدة التي لم اجدها إلا في قراءتي لـ«ألف ليلة وليلة» التي مكثتُ اتلو سورها، بعد فصلي من الدراسة الاعدادية، مئات المرّات، كيما أنسى مأساتي الوجودية، حتى حفظتها واستطعت سرد كلّ حكاياتها عن ظهر قلب كشهرزاد نفسها التي انتهيت بالذوبان بها والتوحّد معها. لم أشتهر بالطبع في حين اشتهر عبد الستار بأنه المناضل الوحيد الذي يحفظ كتاب«ما العمل؟» عن ظهر قلب، وشتّان بين عدد صفحات الكتابين.

هكذا كنت أقضّي حياتي بعد حفظ مجلدات «ألف ليلة وليلة»: احكيها ليلا أمام أميرٍ إفتراضي رأيته بفخامة وجمال شهريار. وعندما يدركني الصباح، أكفّ أمام جلالته عن كلّ حديث مباح... غفرانك ربي! كلّ ذلك كان قبل أن تدُقّ هندُ بابي وتهاجر بي إلى اطراف الدنيا ألف مرّة ومرّة يوميا، صائرة بحمدها ورعايتها حاديةَ أظعان أطوي «مواقع الانترنيت» طيّا، اتلذذ بالترحل والاستكشاف، أنصب خيامي من جزيرة إلى جزيرة في هذا الكون الذي يغلّف فضاءَه –المضطرمَ بالإشارات والذبذبات اللامرئيه– محيطٌ عجاج متلاطم الامواج من الأرقام والانغام والكلمات والصور.

حتى والدتي التي أضناها المرض، بدأت (بعد ان نجحتُ بتوريطها في أشباك هند) تتلذّذ بقراءة صحون الـس.د.روم المخصصة للأطفال. صارت مولّعة ببرامج ديزني لاند، مشغوفة بمِيني وميكي، بميلان والملك-الأسد، بعلاء الدين وبدر البدور الذي غيّر شيوخ ديزني لاند اسمها ظلما وبهتانا إلى ياسمين. سبحان من يُحيِي العظام وهي رميم! هاهي والدتي الحنونة تبدأ طفولتها المسلوبة من جديد، تلهو وتضحك بشغف كطفلة صغيرة، إذا لم تنساني في لجّ اللوعة والحنين وهي تحتكر هندا ساعات تمرّ عليّ كسنين عجاف.

والدتي، هي ايضا، فتنها وجودي «الإفتراضي» وأسفاري في الصفوف العلمية والمتاحف والأوبرات الراقية. لم يعد في تصورها، مثلي، ما هو ألذ من الحياة في هذه الأكوان، في حين بدت عوالمكم في ناظرينا إشكالية لامعقولة، هشّة مقعرة، تبتعد يوما بعد يوم عن وطننا الجديد.

إشتدّ ساعدي في التوغل في أرجاء هذا الوطن الفسيح والتسكّع في أقبيته العامرة بفضل بساطي الريحي الذي لا يكل. ما إن صرتُ هكذا انترنيتية محنّكة حتى بدأتْ تساورني الرغبة في أن أصمّم مواقعي الشخصية وأضيفها منازل جديدة في وطني الجديد، أصور بها أخيلتي و«أُمَدِّي» عبرها رؤاي واستيهاماتي الحميمة. سألت نفسي

مرارا: « لماذا لا أشيّد جُزُري، مثل كل عباد الله، في هذا المحيط الهادر الذي أسموه: انترنيت؟ » ثم شرعت يوما في لحظة انفجار ديناميت القريحة وانهيار برازخ العُقَد، بإعداد فيلم أسميته «قرية العكابر »– good morning عبد الكريم الرازحي! – استوحيتُ من «ساجا» كاتب «الشورى» معظم شخصياته، لاسيما «شيخ» قرية العكابر التي تنفجر والدتي ضحكا عند رؤيته.

شجّعني إعجاب والدتي كثيرا في أن أواصل استخدام إسمنت الانترنيت لبناء صروحٍ لأحلام طفولتي. أعدت بناء «حديقة حيوانات عبد المجيد » التي كانت عامرة أخّاذة على تخوم شيخ الدويل، قبل أن يُصيبها، أمام مرآي ومسمعي، ما أصاب ناقة صالح. ترقرقت دموعي حينها ليل نهار وأنا أعيش – في سنوات طفولتي الأولى – وفاة نمورها وأسودها، فيلها وقرودها، حماماتها وطواويسها... أقسمت آنذاك أن أكتب يوما سيرة حيواناتها سيرةً سيرة. أما اليوم فهي تعيش برفاهية وسلام في حديقة حيوانات عبدالمجيد الإفتراضية التي يمكنكم التفسُّح فيها مجانا على العنوان التالي:

http://www.roqaya.ye/zoo/

أعدتُ أيضا بناء واقعكم اليمني المعاصر منذ فجر الستينات، على مواقع إفتراضية، وتركته ينمو ويعيش لوحده. تصفّحوا هذه المواقع لتروا كم صار واقعكم مغريا باهرا اليوم بعد أربعين سنة! والدَتي وأنا، لا نصبوا اليوم إلا لأن نستوطنه ونحيا فراشتين طليقتين في حدائقه الظليلة الباسقة. إختفى دورُ شيخِ القبيلة وقاطع الطريق في عالمنا بعد أربعين سنة من تطوّره، في حين صارا شمسَ وقمرَ عالَمكم، يمتصّان نخاعهُ مصّا. تزداد عودة عالمكم للخلف يوما بعد يوم، يقترب من أعشاش الذين تنفيهم حركة التاريخ نحو الإنهيار والعدم. لم نعُدْ نستوعب قطّ عالمكم، والدتي وأنا. يبدو لنا خياليا مرعبا، أشبه بحلمٍ مزعج، في حين اندمجنا قلوبا وقوالب في عوالمنا المخملية الجديدة، التي صارت وطننا الأوحد. هكذا تبادل الحلم والحقيقة أدوارهما! صار كل ما يحدث في واقعكم أشبه بالحلم، أتوجّه نحو والدتي البارعة في تفسير الأحلام من أجل تفسيره. سهام تفسيراتها تصيب مراميها في أغلب الأحيان. مثالٌ بين كثيرٍ من الأمثلة: عندما توفّى طفل جارتي في شيخ الدويل بالحمّى القرمزية، إقتربتُ من والدتي أطلب منها تفسير الحلم. قالت لي إن جارتي الإفتراضية في الموقع الذى كرّسته لشيخ الدويل الإفتراضية ستلدُ طفلا فاتنا في نفس اليوم. صدّقوني: توجّهتُ نحو هند أفتح موقع شيخ الدويل بنفسي. أبركت «الفأرة» على موضع منزل جارتي الإفتراضية. نقَرْته لأتصفّح ما يدور بمنزلها. ماذا أرى؟ ها هي جارتي تلدُ أمام ناظري طفلا كالبدر في ليلة تمامه، كما تقول شهرزاد. نظريّات والدتي في تفسيرِ الأحلام ينبغي، ولاغرو، أن تُكتبَ برؤوس الإبر فوق آماق البصر لتكون عبرة لمن اعتبر، كما تقول أميرة ألف ليلة وليلة. بيد أن الأحلام الإفتراضية طائفةٌ جديدة من الأحلام يصعبُ على والدتي تفسيرها. أقصد هنا تلك الأحلام التي تراودني وأنا نائمة في عوالمي الإفتراضية! كان آخر هذه الأحلام وأبدعها: زاوج هند.

حلمتُ ذات ليلة أن هندا قد شبّت وتأجج جمالها وعرفانها وعبقريتها. تنافس على طلبها للزواج أكابر المبدعين وأغنى أمراء البشر. إخترتُ من أجود وأفطن جحافل من

تقدّموا لها، وبرهن تفانيه بعشقها، أميرا باهر الجمال والذكاء عرفت من قراءتي لِ« بيان سيرته » السرّي أنه لم يعشق إلا خارقات الجمال ولم يلمس إلا أفضل الفاتنات. سميته على التو: عاشق الملاح.

قرّرت أن تتم حفلة الزواج على مشارف شيخ الدويل في عقد من القصور التي أمتدت من السيلة إلى الدُريْن (٢) (مرورا بالمدرسة الشرقية وكلية بلقيس). كان ديكور ساحة الزواج مزيجا منسجما من أفخم قاعات عروش قياصرة وسلاطين ألف ليلة وليلة، وأفضل صالات متحف الفيتورسكوب بفرنسا الذي تعجّ به آخر منتجات الألعاب والملاهي والافلام الإفتراضية على شاشات ثلاثية الأبعاد.

إفترشت قاعة العرس بأفضل القطائف الاصفهانية. غطّى أرائكها المرصّعة بالدرر والجواهر والذهب الأحمر أرقّ ديباج الصين، المزركش بأغلى مجوهرات جنوب أفريقيا. تصدّرت جدران القاعة أربع شاشات ضخمة طول وعرض كل واحدة منها عدة كيلومترات. إرتسمت على المرايا الأربع أربعة عوالم إفتراضية تمنيت أن أظل نائمة إلى الأبد لئلّا أكفّ عن التحديق في سحرها الذي لا يقترب من سحرهِ سحر.

« جنتان عن يمينٍ وشمال » تحتلّان المرآة اليمنى واليسرى، واسعتان حتى أطراف الأفق، ممتلئتان بالمروج اليانعة، والرياض الوارفة، والمعابر والإستراحات المطرّزة بالورود العبقة الملوّنة. جنتان لا تنضبّ جداولهما وأنهارهما. تُغرّد طيورهما وتسبّح للباري، وترقص في عليائهما ملايين الفراشات الملونة راسمة لوحات فنية يغشى جمالها من نظر إليها.

على المرآة الخلفية فيلمٌ لم يُعرض بمكان. صُمّم وصُوّر في أفضل مختبرات جزر واق الواق، وخُصّص عرضُه لحفلة زواج هند وعاشق الملاح. فيلم عنوانه: « إرم ذات العماد ». يستعرض الفيلم كيف أراد شدّاد بن عاد أن يحاكي جنة رب العالمين، مشيدا جنة الأرض: إرم، الذي يصوّرها الفيلم من طرفها إلى طرفها في نفس موقعها الجغرافي قرب بحر القلزم، بين أبواب عدن وتخوم المفاليس، مفصّلا كيف أنشئت مذهلةً تسحر الأبصار وتخلع القلوب. يطوف الفيلم بأعمدتها الشاهقة، بحاراتها وقصورها التي نُقِشت على جدرانها لوحات فنية فاتنة مدهشة. يطوف بمسارحها ومتاحفها، بمعابدها وحدائقها... ليكشف عن مدينة لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت. ثم ينتهي الفيلم بأروع وأهول وألظى ما أنتجته معامل السينما البشرية. آية من الخلق الصوري والتأثير الصنعي لا تضاهيها آية: حريق إرم. تبدو فيه جنّة الأرض في شدق ماجما غضب الآلهة. ريحٌ صرصرٌ عاتية تقتلع غطرسة ملكِها وادّعائه، تدكّها دكا، وتمطرها بوابل من جمرات جهنم، كل جمرة منها بحجم جبل قاف.

عند ختام الفيلم تدور أنظار المدعوين نحو المرآة الأمامية المنغمرة في سماء إفتراضية مشحونٌ غسقها بملايين الكواكب الدرّية التي تفوق نصاعتها نصاعة « البلانيتاريوم »، أي « القبب الليلية الإصطناعية » في المتاحف العلمية. سماءٌ شاسعة لا أفق لها. تتفجر فجأة في كل أرجاء هذا الغسق الملائكي ألعابٌ نارية متداخلة الأشكال والألوان، تواكب وتلاقح أنغام « يا نجمِ ياسامر، سامر فوق المصلّة... » التي تصدحُ في كل أنحاء السماء. تنتهي الباقة الأخيرة من الألعاب النارية بصورَتَي هند وعاشق الملاح

تتوهّجان طويلا في عنان السماء.

عندها تنطفئ الألعاب النارية ويلوح قادمٌ من مملكةٍ في طرف الدنيا على خيلٍ أبيضٍ مجنّح باهرِ البهاء كَ« بُراق »، تغطّيه مظلةٌ من الفراشات المضيئة تزيّن موكبَ عروجه السماوي. يلوح بلحمه ودمه، بمشدّته البيضاء ومشقره الأخضر، عاشقُ الملاح «بديع الجمال، رحيم الدلال، أَلَطفَ من نسيمَ الشمال، وأحلى للظمآن من الماء الزلال، والذّ من العافية لصاحب الإعتلال...»، كما تقول شهرزاد. يتوجّه حصانه صوبَ نسرينِ الحفلة وقلبها الخافق، «رشيقةُ القد، أسيلةُ الخد، كاملةُ الوصف، كحيلةُ الطرف، ذات الوجه المليح والقدر الرجيح. ذات حسنٍ وجمال، وجبينٍ كغرة الهلال، وعيون كعيون الغزال، وحواجب كهلال رمضان، وخدودٍ مثل شقائق النعمان، وفمٍ كخاتم سليمان، ووجهٍ كالبدر في الإشراق، ونهدين كرمانتين باتفاق. عقدٌ فوق عنقها حاز كل فصٍّ فيه من الجوهر، ما حاز مثله لا تبع ولاقيصر...» كما تقول معبودتي التي ذبت بها وتوحّدت معها.

هبط الحصان المجنّح بأناة في صدر القاعة. ترجّله عاشق الملاح ليُقبّل يد هند وينحني طويلا أمامها. سالت دموع الحاضرين شفيفةً رقراقه وهو يقبّل ثغرها بفنٍّ وشهوةٍ ملتهبة. كُشِفَ النقابُ بعدها عن المَادب التي عجّت بأفخر مأكولات الأرض وأرقى مشروباتها. جدولان من الشمبانيا المرقمّة المعتّقة، طافحان لمن أراد أن يغرف منهما في أقداح الشراب الفضية، يسيلان على مرمرٍ من البلور من رُكني القاعة لركنيها الآخرين.

مزيجٌ من ماء الورد ونوافح المسك والعنبر وعطورات شانِل وسان لوران تضمّخ القاعة بشدى سحريّ مُثمِل. ثم بدأت أكثر لحظات الحفل إثارة ورهبانية: هند تستعدُّ لركوب الحصان المجنّح والرحيل لمملكة عاشق الملاح في أقصى الأرض. هاجت زغاريد المدعويين وغطرفاتهم تناغما والميكروفونات التي تصدح في قاعة العرس بأغنية عبد الرحمن باجنيد:

قُمْرِي، شلّ بنتنا
قُمْرِي، شلّها وراح
قُمْرِي، عاشق الملاح.

صحوتُ مرتعشة من حلمي الإفتراضي وعيناي مغرورقتان بدموع ساخنة. أيقظتُ والدتي التي نامت مثلي بعد أن أدّينا معا صلاة الفجر وقسطا من صلاة الوتر بأثر رجعي. حكيتُ لها حلمي الغريب وتوسّلتُها بأن تفسّره حالا. إعتذرَتْ والدتي قائلة أنها ربما كانت فطحولة في علم تفسير الأحلام، لكنّها «جُداديّة» في تفسير الأحلام الإفتراضية.

شمّرتُ عن ساعدي وآليت، قبل أن تذبل تفاصيل هذا الحلم المذهل في ذاكرتي، أن أخرجه بفيلمٍ أشيده في موقعٍ جديد يكون أروع وأبدع مواقعي، أسمّيه: زواج هند، وانسخة بمئات من الـ س.د.روم لكل من أراد مشاهدته، من المحاريق إلى ضُلاع، ومن سيحوت إلى الرُجاع...

إتّجهتُ نحو غرفة الإستقبال. صُدمت!! الطاولةُ فارغةٌ من هند وجواريها وغلمانها. لا شئ على المنضدة. هل رحلَتْ حقا؟ أَين هي؟ هل تَفسّرَ الحلم؟ لم أعد أفهم شيئا! أين أنا؟ في أيّ كونٍ أقطنُ وفي أي عالم أتسكّع؟ في عالمكم «الواقعي»؟ في عالمي «الإفتراضي»؟ في حلم إفتراضي؟ في حلم داخل الحلم؟...

«ستْرك يارب!» هكذا أقول عندما تضيق بي الدنيا وتتقاذف بي مصائبها وبلواها.
ورقَةٌ بيضاء صغيرة حلّت محل هند:
«تنفيذا لِفتوى الإمام «أبو الحق» شيخ مشايخ جيش مكيراس – الحُديدة الإسلامي، بإبادة كلّ رموز الغرب والضلال في الحياة اليومية، بعد أن أعدم بحمد الله وعونه، آخر سائح أجنبي: تمّ اختطاف وتدمير ما بعثه أعداء الحق والإسلام من «سمّ في رسالة»...
.....
وكلمة اللّه هي العليا!
إمضاء: كتيبة شيخ الدويل – المنصورة، الإحتياطي النشِط لجيش مكيراس – الحُديدة الإسلامي.

روان – كوكبان، فبراير ١٩٩٩

(١) ضاحية عدنية.
(٢) مناطق في أطراف عَدَن.

آخر حسرات نادر الغريب

لِعشوقةِ نادر الغريب التي جوّعها النهب وخرّبتها الحروب...

١

«نادر الغريب وُلِد غريبا، ومات غريبا، والجنّة للغرباء»، كَتبتُ هذه الكلمات في الزاوية اليسرى في أسفل غلاف الملفّ الذي يضم رسائل نادر، صديقي القديم الذي ربما كنت خير من يعرفه، ظاهره وباطنه، منذ نعومة اظافره وحتى آخر تنهداته.

عندما بدأ نادر يتململ في بطن أمه زبيده، كان ذلك قبل ميعاده الرياضي بأكثر من شهر، عند عودتها مع زوجها، سعيد الغريب، من نزهة قرب شواطئ عدن الصغرى. أوقف سعيد سيارته قريباً من هذه الشواطئ، عند شعلة مصفاة بترول البريقة بالتحديد، عندما شعرت زبيده ان جنينها لم يَعُد يتململ، فها هو يجدف بين تلابيب أحشائها، يركض نحو قاع الرحم، يهرولُ، يهرولُ، يهرول... ميقنةً أن زفرة الدفع الأخيرة ستكون على أبواب المصفاة...

بعد دقائقَ طويلةٍ مضطربةٍ حادة، توقف الجنين عن الرفس قليلاً. تنفس والِدَاهُ الصعداء منطلقين بسيارتهما صوب منزلهما في حي العيدروس المنتصب فوق خاصرة كريتر في قلب عدن. توقّفا مجدداً عندما عاود الجنين قرعه المتسارع بين ترائب والدته في طريق العودة، قرب محطة الطاقة الكهروحرارية. أوقفَ سعيد سيارته في قارعة الطريق، ثم توجّه نحو خلوةٍ بعيدة عن معابر السيارات والمارة، تحت اشجار «البَهَش» المجاورة للمحطة، وقد بدا له أن جنينه صمّم بالفعل ان لا يلج الكرة الارضية إلا قُرب عتبة مصنع. بدأ يُعِدُّ صحْفَة ماءٍ نظيف، ويفرشُ مشدّتَهُ البيضاء محوِّلاً سيارته الى مستشفى ولادة، وهو يرى قرينته على حافة الانفجار الكوني الكبير، تتصبب عرقاً وهي تَصُبُّ وابلاً من البسملات المتقاطعةِ عمودياً مع متواليات من: «يا رب، يارب...» قبل ان تصرخ فجاة: «واصِل، واصِل... يجبَ العودة الى المنزل فوراً.»

عند جَولة كالتكس، في منتصف طريق العودة، تناهى الى مسمعيهما أذان مغرب مساجد المنصورة وهي تواكب غروب كالتكس الارجواني وتذوب في فضاءٍ يغزوه ليلٌ قمريٌّ جميل. قررت زبيده حينها الاتجاه يساراً نحو منزل اختها في الشيخ عثمان بدلاً من التوجه يميناً نحو منزلهما البعيد، كيما تُنجب مستلقيةً على فراش اختها بدلاً من التكوّرِ البهلواني فوق مقعد سيارتهما الصغيرة في مكانٍ ما، بين كالتكس وحي العيدروس. خطرت لسعيد فكرة التوقف في كالتكس لتُهدِّئَ زبيدة من روعها وتستمدّ قسطاً من الراحة والانشراح قرب شواطئها الساحرة، حيث يتقاطرُ العُشّاق سرّاً بعد غروبَ الشمس. لكنه خشي ان تُعاودَ آلامُ الطلْقِ تسارُعها. أو خشي ببساطة ان يُعكِّرا متعة وهدوء عُشّاق كالتكس...

دار محرّك سيارتهِ باتجاه الشيخ عثمان. وما إن حاذى مصنع الغزل والنسيج

المنتصب على تخومها حتى صرخت زبيده:
– قِفْ! أوقف السيارة حالاً. بدأتُ الانفلاق!

نحّى سعيد سيارته سريعاً فوق القفار الترابية المترامية خلف مصنع الغزل والنسيج، في منتصف المسافة بين سُورِه وطرق العابرين. امامهما باب المصنع الخلفي. على يسارهما ويمينهما، في نهايتي الخلاء الترابي الفسيح المحيط بهما، حيّا القاهرة والمنصورة يتدثران بضوء المساء الخافت. خلفهما افقٌ انسحبت ارجوانيته الدامية أمام ظلمات الليل الزاحف. فوق رأسيهما قمرٌ وديع يتقدم نحو وسط السماء. أنسامٌ رقيقة تهاجمهما من كل مكان.

فجأة شعر بجلال دوره وجسامة مسئوليته. كم هم الآباءالذين رأوا انعكاس أول شعاع ضوء على محيا اطفالهم؟كم هم الآباءالذين مارسوا دَوْرَ القابلات واضعين أول لمسةٍ وقُبلةٍ رقيقتين على جسدِ اطفالِهم منذ لحظة انخراطهم في سجلاّت هذا الكوكب؟... جلجلَ: «الله اكبر!» عندما قالت له زبيده التي تعرف كيف تزحلق بين آهاتها، وهي تشعر بالانشقاق، كلمات لا تخلو من المرح:
– تُكبّر كأنما تحمل تابوتاً أو كأنك ذاهب لمبارزة قتال! بسْمِل بسْمَلوا...
لم تكمل عبارتها. كانت في ذروة معاناتها، تشعر بما يشبه النزيف الداخلي. أو على الارجح تشعر بضرورة أن تتنفس بعمق، أن تزفر وتدفع بكل ما تملك من قوة...

مرّ كل شئ بعد ذلك في غاية السرعة. رأسٌ بشعر ذهبي كحقول عبّاد الشمس ساعة السحر، وبعينين زرقاوين كمياه سيناء في أوج القيلولة، بدأ يهوي بين يدي سعيد الذي استقبله بفخر، ثم بقلق وريبة، وهو يُحدِّق بذهول في ملامحه المغلّفة بوشاح دموي خفيف. بدأ الدم يصعد حاراً الى اقصى رأسه عندما تحقق تحت ضوء مصباح سيارته من نصاعة هذين اللونين اللذين لا ينمان بصلة الى ألوان اعضاء جسده. عصف به العار وداهمته الشكوك الاكثر ظلامية وكأنه مطعونٌ في صميمِ رُجولته. لولا المفاجاة السارة التي لم يكن ينتظرها وهو يجرُّ احد ساعدي شبْلِه الجميل: شامةٌ على الساعد الايمن، في نفس موضع شامته هو نفسه، في منتصف المسافة بين الكتف والمرفق! دليلٌ لا يضاهيه دليل على ان الطفل الذي يحمله بين يديه تبرعم من نطافِ صُلْبه. وما هذه الشامة الا امضاء وقّعته خياشيم الاب في كروموزومات فلذة كبده.

بعد ولادة عسيرة، دون ممرضات أو غرفة عمليات، دون ترف تخدير أسفل الظهر والولادة بلا ألم، «البيرودورال»، أو حتى برنامج الحد الادنى من راحة سرير، توجّه الوالدان نحو دار شقيقة زبيده، يطويان في مشدّةٍ بيضاء جنيناً لذيذ الصراخ، باهي الطلعة، أسمياه على التو: نادر.

دخل سعيد الغريب منزل صهيرته منهك القسمات، مفتول الشارب، يردّد في قرارته ابتهالات دينية تقليدية – نسي معظم مقاطعها – تدعو بالسلامة لزبيدة ونادر. شمّر اكمام قميصه الى حوض الكتف ليبرز عضلات أب لم يتردد في الهبوط الى قاع المنجم بحثاً عن جوهرة فؤاده، أو ليبرز بالاحرى شامته جليةً ناصعةً لكلّ من تُسوّلُ له نفسه التلوّي قرب عيني نادر أو المقارنة الماكرة بين شعريهما. هاجت زغردات المباركين بطلعة نادر عارمةً كزهوِ والِدهِ الذي ثابر منذ ذلك اليوم على ارتداء قمصان ذي اكمامٍ قصيرة جداً تكشف عن

معظم ساعده. أما نادر فلم يرتد طوال السبع السنوات التي عاشها بجوار والِده (قبل ان يسلم الأخيرُ روحَه لمالك الملك إثر تلفٍ في الكليتين أودى بحياته) إلا ثانيلات بلا اكمام.

أحبّ سعيد شامةَ إبنه كثيراً. لم يتوقف عن الحملقة بها ودراسة أوجه شبهها بشامته، وإن لاحظ في السنتين الاخيرتين من عمره (قبل ان تتشمّع كليتيه أو تذبلان كبطاطتين متعفّنتين) بروز اختلاف في شكليهما: بينما كانت شامته نقية الدائريّة، مكتملة الإخضرار، كانت شامة طفله مبرقعة الى حد ما، إذ تكونت من شكلين متجاورين يفصلهما فراغ قطري. يشبه اعلاهما، بما لا يدع مجالاً للشك، شكل المطرقة. بينما يشبه الاخر بوضوحٍ ساطع شكل المنْجَل.

عندما أينع نادر واشتدّ ساعده برزت في سلوكه ظاهرةٌ جديدة طغت اهميتها على شامته ولوني شعره وعينيه. (لا يعني ذلك ان شامته لم تعد المنطقة الحميمة التي تربطه كجسر لامرئي بوالده الذي غادره اسرع مما كان ينبغي. بل ظلّت غرفتَه السريه، قُبْلةً ابدية من أبٍ لم يعد بِجانبه، صوتاً صامتاً يجرُّه بشغف لفهم اسرار الجِينات ودراسة علم الوراثة. وما طفق هذان اللونان يسببان له في بعض الاحيان حشداً من المشاكل الجارحة التي تبدأُ بسيل لعاب اللوطيّين وغيبةِ النمّامين الذين يبحثون له عن سلفٍ قريب أو بعيد في جندي انجليزي عاش في عدن أو في خلَفِ محارب صليبي نزح نحو الجزيرة العربية، مغدقين عليه تسميات لا تستحق الذكر هنا. ويسببان له في احيان اخرى قسطاً من المفاجآت السارة كنظرات بعض المراهقات اللواتي يذبن أمام هذين اللونين.) عندما اقترب نادر من مقتبل الشباب، جَذبَ شيءٌ آخر فيه إسهاب القيل والقال وثراء التحليلات، اكثر من هاتين الظاهرتين البيولوچيتين اللتين اخذتا بالتالي اهميةً أقلّ طليعية. فلقد صار له موقفٌ من الاقتصاد الانتاجي والصناعة الوطنية أذهل جلّ اصدقائه ومعارفه وذويه: غدا اصولياً متطرفاً في الحديث عنهما والولاء لهما. لا يُشهِّد ولا يُكبِّر إلا بهما...

أتذكر ككل من عاصر نادر انه كان يأبى شرب الشاي – المستورد – ولا تُثْمِلهُ الا قهوة البُنّ مهما كانت نسبة «القِشْر» فيها. لم تمس يديه اية وجبة زربيان بسبب «فيروس» رُزِّها الباكستاني كما كان يقول، ولم يذق حتى وجبة رز صيني مبتذل، وفضّل عليهما اي ساندويتش «وزِف» جاف، أواية «عصيدة» عابر سبيل. لم يدخن الا سيجارة ردفان أو كمران وظلّ يشعر بآلام فظيعة في الرأس كلّما تسلّلت قربه رائحة سيجارة اجنبية. لم يلبس إلا فوط وقمصان مصنع الغزل والنسيج، مسقط رأسه وكعبة فؤاده، وظلّ ينظر بازدراء الى اي لباس بماركة اجنبية. وعندما كان يمرّ قرب مصفاة النفط يفتح حويصلاته الهوائية على مصراعيها، يتنفس بشاعرية، ويملأ جُلّ رئتيه بثاني اكسيد كربونها الكثيف. حتى الجنبيات التي كانت تذكِّره بالامام احمد ونهايات العصر الحجري، صارت تذكي فخره واعتزازه. زيّن غرفة استقباله بجنبيةٍ ماانفك ينظر لها بغرام وقداسة. ولولا وجود الاسلام على هذه الديار منذ اكثر من اربعة عشر قرناً لصارت هذه الجنبية معبودته الوثنية بدلاً من اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى. أما عندما يرى نادر معمل قمريّات صنعانية فيصاب بحالة خشوع صوفي ويؤدي بلا وعي اشارة الصليب.

تكاثرت كالعادة التفسيرات والتعليقات والدراسات المضطربة والمتناقضة، المتمحورة حول سلوك نادر وملّته الجديدة. نعى كثيرون ذلك لمروره في الدقائق الأولى من

حشرجة ولادته امام معظم البناء التحتي للصناعة اليمنية (وهذا ما حصل فعلاً) ولختانه امام مصنع الطلاء أوالكبريت (وهذا ما أجزمُ انّه قيل من قبيل المبالغة)، وكأنّ عروةً وثقى أو حبل سُرّة سرّي أوشجت تلابيبه بالصناعة الوطنية. واعتقد آخرون ان هذه المطرقة والمنجل المرسومتين على ساعده الايمن هما وحدهما سرُّ أسرار سُلوكه المحير. فهما دليل دامغ على ان جنيّاً من فصائل الجنَ المَاركسيين قد ركبه وهو في بطن أمّه، ووصم على ساعده هذه الشامة لئلا يتجرأ أحدٌ من فصائل الجنّ الاخرين الاقتراب من «منطقته المحررة». أما معشر العائبين الاكثر ميلاً للوسوسة والخنس فقد جزموا أن نادر يريد بهذا التشبث المبالغ فيه بالاقتصاد الانتاجي ان يُنسي الاخرين غرابة لون شعره وعينيه، وانتمائه الى اجناس النصارى وأوطانهم.

أتذكّر ككل من تَبقّى من صحابته الأُوَل كم كان نادر يدفع سلوكه المغرم بالاقتصاد الانتاجي الى أقصى المنطقية. فكان يردد انه اذا سئل عن رغبته الاخيرة قبل الموت (في بلدٍ لا يُلاطَف فيه بكياسة رفيعة حشود من يعدموا في اجتماعات المكاتب السياسية أو في تصفيات الغدر والثأر اليومي) فسيطلب صحناً من «المطفّاية» مع خبز «طاوة»، تليهما ثمرة «عاطٍ» كبيرة، ثم مجّة أو مجّتين من سيجارة كريتر. ويضيف آخرون –والله اعلم– انه اراد ان يرافق مأدبته الجنائزية بكأس من نبيذ «البلدي» المعتق المعصور من العنب «الرازقي».

ولأنه كان في غاية المنطقية في تفانيه المفرط لقناعاته الفكرية، فقد بدأت حالته النفسية تتوتر كثيراً عندما بدأت محلات «صرف الدولار» وإقتصاد اللاإنتاج تنتشر كالجدري في كل أنحاء البلاد، بنفس سرعة انتشار القات ونقص توفر الماء... صار نادر حينها يصاب بحالات عصابية، يشكو من الغثيان الدائم والرغبة المستمرة في التقيؤ.

ولأنه كان في غاية الاتفاق مع نفسه ومع عشقه الاعمى للاقتصاد الانتاجي، فقد بارك بناء مصنع البيرة، هو الذي لم يرشف يوماً جرعة بيرة لأنه كان يعيف رائحتها قبل كل شئ. وعندما غزت جيوش الوحدة هذا المصنع اشتطّ غضب نادر. تجرأ بعضهم بِنعْته بـ«إنفصالي»، هو الذي كان دوماً من كبار الحواريين المؤمنين البررة بعُمَر الجاوي الذي لم يتفجر إيمانه بدين الوحدة اليمنية بعد تفجر سور برلين، أو بعد تفجر البترول في محافظة حضرموت.

وعندما اكتشف نادر ان البلد تعِجُّ بخمور يهرِّبها عبر البحر من يهرِّبها من غضنفرات المال والسلطة قال لنفسه: « فضّلوا الخمر المهرب على الخمر المحلي! فضّلوا ان يبدّلوا الإثم بعشرة آثام!... » ثم أصبح نادر، هو الذي لم يطق لحظةً عصور «لا صوت يعلو فوق صوت الحزب» وهمجية حروبها القبلية، يشعر بالانفجار في زمن «لا صوت يعلو فوق صوت الانهيار»، كما كان يقول.

قرّر حينها أن «يُعطِّف» ويتوكل على الله ويهيم في كل ارجاء معمورته، هو الذي طالما سخر من التعريف العجوز: «وطنك حيث وُلِدت» وفضّل عليه: «وطنك حيث تُبدِع وتعيش سعيدا». هو الذي طالما ابتهل امام آية: «أرضُ الله واسعة» وسخر من مازوشية المسكين الذي قال: « بلادي وإن جارت عليّ...». ولانه من اولئك الذين اذا عشقوا شيئاً دخلوه من جهاته الاربع، واذا عافوا شيئاً طلّقوه ثلاثاً، فقد انتزع من فؤاده كل احاسيس «قفا

نبكِ... »، وكل ذكريات « ودارٍ لها بالرقمتينِ... »، مغلقاً بزُبُرِ الحديدِ كل دهليزٍ يُفْضي به لوطنٍ أضحى غريباً ولا منطقياً في عينيه.

٢

هاجرَ نادرُ، غامرَ وتشرّد. طعم لحن الحرية وذاق مرارات المنافي. كان الرحيلُ خَيْلَه الذي يهرب به من آلام الشجن وآهاته، من نخر الحنين ودوّاماته. واجَهَ جاذبية الشجون بجاذبية الرحيلِ الى المرافئ البعيدة، الرحيلِ في جسد المعشوقة. « الرحيلِ بإيقاع انغامِ تنوعات العشق وطقوسه » كما كتب لي يوماً في أول رسالة شاعرية، هو الذي خلت رسائله (قبل أن تحتَلَّ سلوى الغرناطية كل خلاياه النخاعية) من فيضان المجاز والاستدارات الادبية، وعجّت باسماء الانزيمات البيولوچية والاحماض الكيمائية.

إشتغل نادلَ مطعمٍ في الكويت، بنّاءاً في سنغافورة. باع الصحف في محطة قطارات فرانكفورت بالمانيا. فتح « مخبازة » في بورتلاند في أقصى شمال غرب امريكا. ثم عاد لأوروبا وفتح محلات لبيع الورد في غرناطة بجنوب اسبانيا، التي استقر بها كثيراً واحبها حبّا جمّاً. قال لي يوماً انه فتح فيها محلات ورود لبيع « فلٍّ يكاد يشبه عبقه عبق الفُلّ اللحجيّ » الذي اشكُّ انه استعاد عبر رائحته نتفاً من ذكرياته القديمة. فلم تكن رسائلُه، كما قُلتُ، مفعمةً قطُّ بالحنين لمرابع الطفولة، بل كانت مسكونةً بهوسٍ جديد طمّ هوسَه وولعه القديمين بالاقتصاد الانتاجي!

هَوَسه الذي اعترم فيه منذ رحيله، له إسمٌ لاتينيٌ أصم: البيولوچيا، أو علوم الاحياء كما يروق لي القول. فلم يُقِم في مدينة دون ان يزورفيها ساعات طوال متاحف علوم الاحياء، أو دون ان يشتري كتباً جديدة حول الجينات وعلوم الوراثة. صار لمجنونِ البيولوچيا موطنٌ جديد: الاربعين الف مليار خلية الذي يتكون منها كل جسد. مدنٌ جديده: أشرطة ازواج الكروموزومات الثلاثة والعشرين التي تتجاشم داخل نواة كل خلية. شوارع جديدة: عشرات آلاف الجينات المتراصة في تلك الأشرطة والتي توجّه إنتاج بروتينات الانسجة. صار له منزلٌ جديد في لبِّ الجينات، في خضمِّ « طوبات » نسيجها، أو ما يُسمّى بمتواليات « الدنا »: ذلك الجزئ الكيماويّ الذي لم اسمع به قبل ان ترسمه رسائل نادر بلغة النصارى: D.N.A

عَنِ الدنا، أو جزئ حمض الديزوكسيربونيكييك الذي اكتشفه العلم مؤخراً، حَدَّثَني نادرُ كثيراً. لم أعره اهتماماً جارفاً عندما كان يتحدث عن الثلاثة مليارات زوجٍ من المركّبات القاعديّه التي تتداخل في تكوين جزئ الدنا، إذ كنت أفَضّل عندما كان يلجأ للبلاغة ناعتاً متواليات هذا الجزئ العملاق، هذا الجزئ –المجرّة كما سمّاه، بـ« البصمة » التي تميز كل فرد، أو الصيغة الرياضية التي تُحدِّدُ قولبَه وقالبه، أوالمجلدات التي تحمل في طيّاتها كلَّ تاريخه وميراثه المورفولوچي، كلَّ امراضه ورزاياه المستقبلية... لا أبالغ كثيراً ان قلت ان رسائل نادر أضحت تقارير علميّة لا تخلو مع ذلك من صبابات محرقة، دروساً بيولوچية لا ينضبّ تجددها، ومحاضرات مغليّة بشغف المزيد من المعرفة بجغرافية الدنا، والكشف عن اسرار متواليّاتها التي نعتها بـ« اللوح المحفوظ » الذي انكتب فيه تاريخ كل انسان ومآله.

قدَرهُ باختصار شديد.

عشق نادر غرناطة بشراسة لاسباب لا يستطيع إلا محلّل محنّك فَكَّ اسرارها وتأويل خباياها. ربما تولَّع بزهرة الاندلس لمآثر ايامها الخالية وبقايا قصر الحمراء (فمن لم ينحنِ إجلالا أمام قصر الحمراء وسحر بساتينه الفاتنة؟) أو ربما تولّع بها لأنه بدأ فيها الخطوة الأولى في اخصب مغامرات حياته، مغامرة الدنا، أو البحث عن اسرار الكون الكبرى في خلايا كائناته الحيّة ومكوّناتها اللانهائية الصِغَر. فقد مرّ في جامعتها – بعد أن تركَ آخرين يديرون محلّات وروده – أطروحةَ الدكتوراه في علوم الأحياء درس فيها تقنيات جديدة لاستقصاء الامراض بوَاسطة تحليل بنية الجينات المرتبطة بها. ما زلتُ احتفظ الى الآن بطلاسم متواليات و«شخاطيط» رسوماته البيانية التي فصّل فيها خرائط متواليات الدنا في الجينة رقم ٧ للجنين الذي يحمل مرض التليّف الكيسي. ما أشجعه نادر! حاول بجسارة ارغامي على فهم كل تلك «الخبابير» انا الذي لم اسمع حتى يومنا هذا باسم ذلك المرض، ناهيك عن امكانية التنبؤ بوجود اي مرض قبل اندلاعه. فانا – أحمدُه وأشكرُه – اعيشُ في بلد الطمأنينة واليقين المطلق حيث لا يُتكهن غالبا بوجود المرض فيه إلا بعد وفاة المريض بقليل.

بل ربما كان وراء كل غرام نادر الجنوني بغرناطة علّة اخرى لا تمت بصلة للتاريخ أو البيولوچيا. ملكة العلل: أربعين الف مليار قبسٍ من الجمال الوافر والطاقة المعترمة، اسميرالدا، أو سلوى الغرناطية كما كان يسميها. سلوى الاندلسية–اللبنانية كما أرادت جينات أحدّ ابويها، الايطالية–البوهيمية كما أمْلَتْ جينات الآخر. سلوى التي صبّ فيها كل عشقه الجديد لغرناطة، كلّ عشقه القديم لعَدَن، كل عشقه للدنيا، وكل عشقٍ عرفته الدنيا.

قرأ إسمها يوم رأى إعلانا في احد الاندية الثقافية للجامعة عن محاضرة بصور الفانوس السحري، الديابوزيتيف، عن اثيوبيا. أو بلاد الحبشة كما أُحِب القول. هرع نحو المحاضرة بحماسته التقليدية، هو الذي طالما ردّد في صباه ان هناك بلدين عظيمين ارتبطا بتاريخ وجغرافية اليمن واساطيره الحميمة: بلاد الهند وبلاد الحبشة. كم كان يتوسل في نقاشاته انذاك ان تفتح اليمن بابين كبيرين على بلادي الهند والحبشة، بجانب بابها الطبيعي الكبير المفتوح على العالم العربي.

صعق نادر عندما رأى بوهيميّةً فاتنة في منصّة العرض تُعلِّق على صوَرٍ التقطتها عند عبور عشيرتها الغجرية بلاد الحبشة. أغلب الظن انه نسي في تلك المحاضرة كلّ بلاد الحبشة. نسي ابرهة الاشرم، هيلاسلاسي، منابع النيل، موقع الحبشة الجغرافي، إسمها، كلّ افريقيا، وكلّ الكرة الارضية في الجانب الخارجي من قاعة العرض.

لم يُصغِ لكلمة. لم يرَ أي صورة. ظلّ يُحدِّق باسميرالدا، بشعرها الفحمي الناعم المترامي على كتفيها الطليقين، بفستانها المخملي الخفيف الابيض... وصوتِها. صوتِها الذي يغمر صالة العرض عذوبة ودفئا. ظلّ يُحدّق باسميرالدا مفتونا مخبولا حتى نهاية العرض. ثم اقترب منها ليوجّه لها اسئلةً إبتكرها بعجل، دون أن يتسآل إن كانت لها علاقة ما بالمحاضرة التي لم يُصغِ لها إطلاقا. ارتبك وهو يرى عن كثب عينيها الجميلتين الواسعتين كأعين فاتنات النقوش الحبشية، وقسماتها البوهيمية التي اندمجت فيها بانسجام عبقري أجمل قسمات اللبنانيات والايطاليات والاسبانيات في نفس الآن... سألها عن الصراع

الاثيوبي-الارتيري، عن متحجرات هيكل اقدم انسان في العالم عاش في مهدِ الانسانية: أفريقيا، ووُجِد في بلاد الحبشة... سألها وهي تلاحظ بسرّية هذا العدني ذي العينين الزرقاوين والشعرِ الاشقر الذي لا يعرف بجلاء كيف يخفي اهتمامه العنيف بها، أو كيف يتمالك نظراته الرقيقة التي تحاصرها من كلّ جهة وتغمسها بقوة في عواطفها الدافقة. أجابته بعربيةٍ ناصعة لذيذة انها تهتمّ خاصة بالمعالم الجغرافية وتجهل تفاصيل الأوضاع السياسية أو الاكتشافات الاركيولوچية في اثيوبيا. ثم ابتسمت بعذوبة مُردّدةً أسَفها على عدم إجابتهِ على أسئلته.

مُذّاك تحوّل نادي الجامعة كعْبَته، واسميرالدا حجَرَه الاسود. ظل يترقب وصولها للجامعة وشوارعها المجاورة. يبعث لها يوميا من محلات وُرودهِ أشذى باقةٍ عملاقةٍ من فُلّه الذي «يكاد يشبه عبقه عبق الفُلّ اللحجيّ». يسألها بإمعان عن دراساتها الجغرافيةً وأسفارها الدائمة. تسأله دون توقف عن مدينة طفولته: عدن التي تحلم بزيارتها. إسمُ عدن الميثولوچي إرتبط في لاوَعْيها، كاللاوعي الأوروبي الجماعي إجمالا، برمزِ المدينة المفتوحة على مفترقات البحار، ملجأ الشعراء والادباء المعذبين والحائرين منذ المسافرِ بـ«نعال الريح»، آرتور رامبو، إلى پول نيزان...

سألتْهُ إن كان قرأ كتاب پول نيزان الشهير: «عَدَنْ» الذي قدّمه چان پول سارتر. حكّ رأسه بيدهِ اليمنى. سألتْه إن كان قرأ رواية: «عَدَنْ» لآن-ماري جارا التي نالت بها جائزة «فيمينا ٩٢». حكّ رأسه بيدهِ اليسرى. قالت له إنّ عَدَنْ في لاوعيها العميق مرفأُ الإنسانية المعذبة، مأوى الذين تسحقهم حضارة المادة الخانقة، مدينةُ الحريّة وامتزاج الأجناس والحضارات...

أخبرتْهُ أن الملحق الأسبوعي لصحيفة اللوموند الفرنسية المتخصّص بتقديم جديد الفنون وبرامج السينما والمسرح وواحات التنفّس الثقافي والهروب من الروتين اليومي... له إسم شهير: عَدَنْ. قرأتْ لهُ إزابل رامبو وهي تحكي آخر حسرات وأمنيات أخيها، آرتور، وهو في سرير مرضهِ: «أنهى حياته فيما يشبه الحلم الدائم. أحيانا كان يسأل الأطباء حوله إن كانوا يرون الأشياء الغريبة التي يدركها. يُثبّتون أنظارهم في عينيه، عينيهِ الجميلتين اللتين ما كانتا يوما بذلك الجمال والعبقرية. يقولون سرّا: "لا شبيه له، لا مثيل له..." ثمّة في آرتور شئ لا يدركه أحد! كان يحلم دوما بالسفر إلى عدن...» ثمّ قَرأتْ لهُ فيليب سوليرس: «كان آرتور رامبو يعتقد بحق أنه لو نجى من مرضه ورُكبتهِ المدانة، سيذهب مع عائلته للحياة في عدن.»

أباحتْ له أنها تحلم بزيارة عدن وصعود جبل صيرة الذي اختبأ فيه قابيل بعد إغتياله لأخيه هابيل وهروبه من الهند. ردّ سريعا: «لحسن حظّ قابيل أنه لم يَصِلْها بطائرة!» سألته ماذا يعني في ذلك. تلعثم وهو يحاول إفهامها أنه لو كان مسؤلا عن السياحة في اليمن لمنح تعويضا لكلّ من هبط مطار عَدَنْ الذي لا يُضاهي تعاستَه وعذابَه مطارٌ في العالم. غيّر موضوع الحديث قبل أن تستوعب اسميرالدا حرفا مما قاله، وندم أنه أستعاد ذكريات متعفّنة وآلاماً مطمورة حاول نسيانها كليّة.

كان يفرّ من أي حديث يقترب من اليمن. من ماضيه. مثلما كانت تفرّ من أي حديث عن مشاريعها المستقبلية، عن طقوسِ عشيرتها البوهيمية التي ما بَرِحت اسميرالدا تلحقُ

بركْبِها الهائم بين الآن والآخر، بين رحلتين دراسيتين أو استكشافيتين تقوم بهما في أطراف الكرة الارضية. تكْرهُ الحديث عن الغد مثلما يكرهُ الحديث عن الأمس. تُقفلُ كلّ نقاش يؤدي الى ما تنوي أن تكونه على الدوام: كاتبةً بلا مدينةٍ أو وطن. ويُقفل كلّ ما يعيده الى ماضٍ محاهُ من ذاكرته. يُحاول التحرّر من وطأة الأمس وحِباله مثلما تُحاولُ التحرّر من ترسيمات المستقبل وشِباكه.

وَحْدهُ الحاضر يفتح لهما سجنا مغروسا على أجنحة الملائكة!

في يومٍ ما لم يستطع ان يتمالك نفسه. إنتظرها على طريقها المعهود للذهاب إلى الجامعة. ما إن اقتربت منه حتى أغمض عينيه ولم يردْ على تحيّتها.

طريقةٌ غير مألوفةٍ في التصريح بالحب تلك التي تتمّ بعينين مسدولتين مرتعشتين!

في تلك اللحظة التي احتفظ في شبكيّته بصورتها مبتسمةً رقراقة في ذلك الصباح الربيعيّ النديّ، في تلك الثواني التي لم يعُد يرى فيهنّ محياها وهو ينضح بطراوته الصباحيّة الزكيّة، نطق بلا وعي كلمةً واحدة بلغاتٍ كثيرة. ردّد بالاسبانية، بالايطالية، بالعربية، بالفرنسية، بالانجليزية، بالحبشية، بالهندية... كلمةً واحدة أفضى فيها كل عواطفه المجنونه: أحبّك.

لا يهمّني كثيرا تفسير سبب إغلاق عينيه – ربما كان مردّ ذلك تعودّه في طفولته على قراءة الفاتحة في الصلاة خاشعا مغمض العينين –، بقدر ما يهمّني أنه أضاع شيئا ما في تلك اللحظة التي أغمض فيها عينيه. إضطرّ بي الأمر أن أقبعَ ساعاتٍ طوال في مجالس القات أو في شرفات المقاهي، قبل النوم أو بعده، في لحظات الجدّ أو السدر... أبحث فيهنّ عن الحلقة المفقودة، أعيد فيهنّ بناء تلك اللحظة الأثيرية، راسما في مخيّلتي وجه اسميرالدا وهو يقرأ لها سورة «أحبّك» بعيْنين مغلقتين.

ربما أضاع نادر إلى الأبد أحدّ أجمل أبيات قصيدة الحب. أي شئ أجلّ من رؤية بريق عيني معشوقته وهي تصغي لأول تصريح حبٍّ من معشوقها؟ تبّتْ يدا أبي لهبٍ وَتبْ! لقد نسيَ نادر أمسيات ركن شارعنا. نسيَ الحاج الرديني الذي كان يسرد فيها، أمام ثلّةٍ من أطفال الشارع، مقولاته وحِكَمه وأقصوصاته. أَمَا يتذكّر نادرُ الحاجَ الرديني عندما قال: «لا يتبقّى في ذاكرة الرجل في آخر ثانية قبل مماته إلا ملامح وجْهِ معشوقته وهو يُفضي لها بأول تصريح حبٍّ قاطعٍ خجول.»؟ ربما أجِدُ، أنا الذي لم أعرف الحُبّ الا في الروايات الادبية، صعوبةً أمام عزرائيل في اختيار واحدةٍ من دُرَر ذلك الألبوم الغني الذي كدّسْتُ فيه صور اسميرالدا كما تخيّلتُها أمام نادر وهو يعترفُ لها بعشقه بكل اللغات.

إنتظرَتْ اسميرالدا بأناة أن يفتح نادر عينيه. إبتسمت بعذوبتها المعهودة عندما تعبّر عن أسفٍ ما. أجابته بكلمات اغنية «قصيدة الغجر» الشهيرة، التي ترْجَمَتها حَرفيّا بلسانٍ عربي ناعم، وإن لم تبحث جادةً عن ألفاظ متناغمة تُموسِقُ بها منعطفات تلك القصيدة الغنائية:

الغجرُ شعبٌ تناسل من بقايا كوكبٍ تفجّر قبل ملايين السنين
منذ ذاك اليوم صار الرحيلُ موطنَ الغجر
لا يدخلُ دينَ الغجرِ إلا من يشعرُ بالتخثر اذا بقي طويلا في مكانٍ يُطوِّقه الافق
.....
اذا احبَبْت غجريةً فتذكّر أبداً انها ستَهْجُرك في منتصف ليلة ليلاء

لتلحق سريعاً بقبيلتِها التي تتقدّمُ في سُهوبٍ بعيدة.

ردّ نادر بأنه سيلتهمها قبل ان تغادره. ضحكت سلوى قائلة: «يلتهم الغجر كلَّ شئ، ولا يلتهمُ الغجرَ الا الرحيل»، قبل ان تطوف معه الشوارع المجاورة للجامعة، ويعبران شوارع ألبيسان وأزقتها القديمة، ويتسكعان في البراري المتاخمة للمدينة. قادته بعدها لبعض المرتفعات القريبة، تسلّقتها أمامَهُ بسرعة الريح. هاهي سعيدةٌ بين المروج العذراء، والاعشاب الوحشية، والمسافات الطويلة، والشِعاب الواسعة. في عالمها الأليف، بين عناصرها الأولية. أثملته بعنفوان قدّها الرشيق الراقص، بعبق مساماتها، وبسعادتها القصوى وهي تغسل جسدها بضياء الشمس، تغمره بنسمات المدى، وتُعطِّره برذاذ الأعالي. ثم اقتربا من بحيرة جبلية نائية. اسميرالدا لا تتمالك نفسها أمام البحيرات والامواج العارمة. تنغمر في الماء، تتوغّلُ في عرض البحار وأغوارها. تُجيدُ العَوم كما تُجيد التسلّق. تغوص عميقا ثم تسدر خادرة وتترك الشمسَ تُقبِّلُ بنهمٍ وحنان جسدها المفروش بحرّية على سطح الماء. ثم عادا نحو قلب غرناطة ليتناولا العشاء في أحد المطاعم المجاورة لقصر الحمراء. مطعمُ متقاعدٍ كان رحّالةَ استكشافٍ طوال حياته. كهلٌ ذلِق اللسان، شيّق الحديث، متين البُنية رغم أنهُ بلغ من الكِبرِ عتيّا. تناولت اسميرالدا وجبة البايليا وطبقا من سمك الاخطبوط. وتناول نادر شروخا مرفقةً بطبق التاباس الاسباني. سالَ عطر السانجريا في عروقِهما مباركا رقراقا. حملتْ لهما بعض الأنسامِ المسائية أريجا زكيا من بساتينِ قصر الحمراء المجاورة أوهجت شذاهُ موسيقى المطعم الراقصة وضوؤه الوردي الناعم.

أهدَتْهُ بعدها معبدَ جسدها. اسميرالدا تُتقن ممارسة العشق كما تُتقن السباحة. تتوغل نحو عَرْض العشق وأغواره. تعوم بعيدا بعيدا في الاعماق... علّمته العشق بلُغة طفولته. لم يمارس العشق قبل ذلك اليوم بلِغة طفولته التي كاد ينسى نحوَها وصرفَها. ربما تصالحَ مع لغة طفولته منذ ذلك اليوم. ازدادت شاعريةُ رسائله وصار يتحدث معي عن «انغام تنوعات العشق وطقوسه» وعن معشوقته التي تمتلك جسداً «بجينات العصافير»...

فتَنَهُ كرمُ جسدِها وتأجّجه، بشرتُها النحاسية، ثغرُها الوردي العميق الظامئ. أحبّ جسدها وهي تتماوج بزهو في شوارع غرناطة، وهي ترقص الفلامنكو في نوادي المدينة، وهي تسبح معه في شواطئ الابيض المتوسط... أحبّ جسدها بكل جيناته وغدده.

ربما عشق غرناطة لأنه رأى كل شوارعها ومنعطفاتها في عيني سلوى وهما يطوفان معاً حاراتها وحاناتها نصف ثملين، بعد منتصف ليلها الشهواني اللذيذ. أو ربما كان هناك سبب آخر بالغ السرية، غائرٌ في اعماق التاريخ.

ثمّة رقعة ارضية صغيرة في نهاية ممر جبلي مُطلٍّ على غرناطة، ارتبط اسمها بالسلطان أبي عبدالله، آخر سلاطين غرناطة الذي فرّ على رأس اهله وذويه باموالهم وكنوزهم بعد صفقة تسليم غرناطة للقشطاليين، مقابل السماح لهم بالهروب. في تلك الرقعة التي تختفي بعدها غرناطةُ عن الانظار، توقّف السلطان الهارب برهةً صغيرة في فجر ذلك اليوم السافل المشؤوم من مطلع عام ١٤٩٢... إستدارفي اتجاه غرناطة التي لن يراها بعد ذلك الى الابد، بعد خطوةٍ واحدةٍ فقط. نظر اليها بعينين دامعتين وتَنهّدَ من خياشيمه حسرةً ما زالت تئنُّ بلا صوت فوق جبال الأندلس.

ظلّ نادر يراود تلك الرقعة التي اطلق المؤرخون عليها إسم «آخر حسرات الاندلسي

المسلم»، يتكئُ على صخرة مجاورة لذلك الموضع الذي انغرست فيه شجرة المرارات والحسرات عملاقة حتى السماء، يستعيدُ فيها قصص انشقاقات وصراعات امراء الولايات الاندلسية المجاورة، إزدهار الفساد وانحطاط الحكّام، طغيان الاصولية والتزمُّت، عدم الانفتاح على العِلْم والجديد الذي بدأ يضّخ في أوروبا القرن الخامس عشر...

إختلى بنفسه مرارا فوق تلك الصخرة وكتب منها اكثر رسائله اسهابا وعمقا وحرارة، اكثرها سُمْكا وكثافة ومدعاة للتأمل. أغلب الظنِّ انه كان ينسى هنالك اسميرالدا وعلم الاحياء، إن كان له ان ينسى ثوانٍ معدودة اسميرالدا وعلم الاحياء. تحدّث في رسائله عن ابناء غرناطة الذين كانوا يرددون حينها «الصبر مفتاح الفرج»، بانتظار ان ياتي الفرج من السماء، من سلطان تركيا، من حماة الاسلام... ذكّره ذلك برواية «زهرة البن» (من لم يقرأ بَعْدُ «زهرة البن»؟) ووالدُ بطلِها أحمد، الحاج عبدالله الذي ظلَّ يُردّد:

إشتدِّي أزمةُ تنفرجي قد أوشكَ ليلُكِ بالبَلَجِ

حتى تحلّلت أنسجته في سجن القلعة. سرد لي في رسائله كثيرا من تراجيديات وقصص أغلبية سكان غرناطة الذين صُلِبوا أو هربوا أو أجبروا على تغيير دينهم... ذكّرَني في رسائله، وكأنني مسؤل على كلّ انكسارات العالم العربي والاسلامي، ان قوانين فيزياء الانسان تختلف عن قوانين فيزياء الطبيعة: «الضغط يُولِّد الانفجار في فيزياءالطبيعة، كتب لي يوما، بينما يُولِّد الانهيار في فيزياء الانسان». تعمّق في فلسفة ما اسماه بِ«نظرية الانهيار»، وبكى كل أوجاعه وأوجاعي وهو يبكي، بعد خمسة قرون من ذلك، سقوط غرناطة.

ذرفتُ أدمعي على سقوط غرناطة، انا ايضا، وانا أقرأُ آهات رسائله (من لم يبكِ سقوط غرناطة يوما ما في حياته؟) بلغ بي الحزن، وانا في خِضمِّ مجلس قاتٍ ناريّ، ان اعزم على تشكيل ج.ت.غ، اي جبهة تحرير غرناطة، أنا الذي لم افكّر حتى بالاعتصام في «ملعب العريش» الذي كان منبعاً لنصف سعادات طفولتنا قبل ان يطمّه مؤخرا قاتلو السعادات الصغيرة، أنا الذي لم اشكّل حتى جبهة تحرير مطبخ منزلنا الذي طمّته الجرذان والصراصير...

لم افهم الا بعد سنة من الزمن كيف ولماذا غادر نادر غرناطة بين عشية وضحاها. أتذكّرُ ان رسائله قبل الرحيل منها كانت مرتبكةً لا تخلو من اضطرابٍ وجودي عاصف، قبل ان تتوقف عاما كاملا تسآلتُ فيه بهلع عما حدث لنادر. كتب لي بالحرف الواحد في آخر رسالة له من غرناطة: «يبدو ان رائحة الفلّ اللحجي قد غلبتني في هذا السن الذي ترخو فيه انسجة غضاريف الأنف، ويبدأ المرء بالشخير الليلي، في هذا السن الذي تزدهر فيه صناعة المواد الدهنية في نتؤات البطن... أشعرُ بالتخثر في غرناطة. يجتاحني ما يشبه الشجن للطفولة. أشعرُ بالحنين لموطن الفلّ اللحجي. ربما ضعَفتْ جينات مقاومة الحنين في خلاياي ولم تعد تفرز بروتينات النظر الى الامام والتحرر من قيود الماضي. أشعرُ بالضعف، أشعرُ بالضعف...»

لم يتحدث في تلك الرسالة عن سقوط غرناطة. أو بالاحرى عن سقوط... اسميرالدا! لم يذكر من قريب أو من بعيد سلواه الغرناطية.

لكنه ظل يجيد خنق الحنين بالرحيل. إتجه الى جبال الألب ليقبرَ فيها ذكريات

« جادكَ الغيث إذا الغيث هما » وليقضِّي فيها « الهزيع الاخير من عمره » كما قال لي في أول رسالة وصلتني من هنالك بعد عام من الانقطاع، تضمّدتْ فيه جراح رحيل اسميرالدا، وجراح رحيله من غرناطة.

غادرَتْهُ اسميرالدا في منتصف ليلة ليلاء، وهو نائم بعد ان اسكرته بعشقها، تاركة له فوق ورقة صغيرة « قصيدة الغجر » الشهيرة والملحق التالي:

« يلزمني أن أتوجّه للِّحاقِ بالعشيرة في سهوب شرق الاناضول، أسافر بعدها إلى قريةٍ نائية على ضفاف نهرِ الميكونج لمشروعَي فيلمٍ وكتاب.

إلى لقاءٍ قدريٍّ في جوهانسبورج أو في عَدَنْ، في بُخارى أو في لشبونه، في سِدني أو في هاڤانا، في باب المندب أو في رأس الرجاء الصالح، في جبال الألب أو في جبال الهملايا، في الارض أو في كوكبٍ آخر!

هذا... وقد أُعذِر من أَنذَر.

معشوقتك إلى الأبد: اسميرالدا »

غادر نادر غرناطة بعد سقوط اسميرالدا فوراً. لم يترك غرناطة كأي مدينةٍ أخرى (لا تُهْجَرُ غرناطة كما تُهجرُ اية مدينة اخرى). شيئٌ ما ذو بُعدٍ روائيٍ عميق في اسلوب رحيل نادر شدّني بضراوة. طلب قبل رحيله من ف.م. (أحد اصدقائه القدامى الذي يقطن باريس والذي يستلم بين الفينة والاخرى قاتاً طازجا يجيئه عبر قطار الأوروستار الذي يصل لندن بباريس مخترقا أحشاء بحر المانش) ان يبعثَ له زُربةَ قات عبر بريد ال.D.H.L ليصِله في نفس اليوم. صعد نادر مع قاتِه فوق الصخرة المجاورة لِ« آخر حسرات الاندلسي المسلم». خزّن فوقها قاته، هو الذي لم يذق القات قطُّ في حياته.

أي شئٍ أفضل من القات في لوكِ الحديث عن الهزيمة واليأس؟

أي شئٍ أفضل من القات في ترتيلِ أوراد السقوط؟

أي شئٍ أفضل من تخزين القات فوق ربوةٍ عالية تُطلّ على سرابِ معشوقةٍ هجرَتْ، وحطامِ مدينةٍ إندثرت، وقبورٍ تصرخ هياكلُها في أحشاء التراب؟

تقيأَ نادر بعدها كومةَ قاته ورماها بوقاحة متعمّدة بين الصخرة و« آخر حسرات الاندلسي المسلم». ثم جعَرَ بصرخات لا مدلول لها كاد يقذفُ فيها جُلّ أمعائه. جَعَرَ من قعر معدته. ظلّ يجعر دقائق طويلة امام « آخر حسرات الاندلسي المسلم»، ليمنح لنظراتِ السلطان المخلوع المتحسِّرة النبرات الصوتية التي تنقصها منذ خمسة قرون: اسميرالدا، اسميرالدا، اسميرالدا...

٣

لم أفهم في بادئ الامر لماذا أرسى نادر سفينته في جبال الألب في شرق فرنسا. أعْرفُ جيدا كم كان يتجنَّبُ السكن بمنأى عن البحر. يشعر، كما قال لي يوما، بالتعلُّبِ والاختناق إذا عاش طويلا في مدينة تبعد كثيرا عن الشواطئ الفسيحة المترامية والامواجِ القادمة من لجّ المحيط. إختيارٌ عجيب هذه المرّة، لا يفسّرهُ كلّ سحرِ وفتنة الطبيعة التي حطّ مطيّته في أجمل مرابعها. حيث سكن نادر هناكَ في منزلٍ واسعٍ منسّق تحيطه حديقة

عامرة أنيقة، في أعالي ضيعةٍ مرتفعة، على مقربةٍ من مدينة آنْسي في جبال الألب الفرنسية المتاخمة لسويسرا وايطاليا، وسط سيلٍ من مناظرٍ يصعقُ جمالها البصر.

خِفتُ أوّلاً أن يكون تَخلّيه عن دِينِ الامواج وطقوسِ حياة المدن البحريّة بداية ضعفٍ وتقهقر. شكلٌ من أشكال التدجينِ أو نوعٌ من الاستسلام للموت. وكأنّهُ يُهيئُ نفسهُ للإنطفاء ويروّض شهيّته لمأدبة الوداع الاخير في هذه الربوع الذي «يُقضّي فيها الهزيع الاخير من عمره»، كما قال لي في أول رسائله منها.

لكن ربما كانت اسميرالدا دافعُ ذلك الاختيار. ألم تَذكُرْ إسمَ جبال الألب في رسالتها التي تركتها ليلة رحيلها الاخير عن غرناطة؟ هل ذكرَتْ إسم جبال الألب عبثا، هي التي تعرف مدى ارتباط نادر بـ«مختبر الهندسة الجينية» في مدينة آنسي التابع للِ INSERM (المعهد القومي للصحة والابحاث الطبّية) وللِ INRA (المعهد القومي للأبحاث الزراعية)، حيث تُجرى بعض الابحاث الأكثر طليعية في علوم الاحياء؟وهل نسيَ نادر كم كانت بوهيميّته تهفو لمرافقَتهَ آنذاك وهو يسري ليلا من غرناطة الى جبال الألب ضمن برامج أبحاثٍ عديدة مشتركة مع زملائه في مختبر مدينة آنسي؟...

لا شئ في آنسي يُذَكّره بغرناطة او ببلاد الفلّ اللحجي. جبالٌ شاهقة خلّابة ماطرة. جحافل بشريّة تلهو فوق سفوحها التي انثالت فيها مدنٌ واسعةٌ عُمِّرتْ للتزحلق والراحة والاستجمام. ثلجٌ أبيض ناعم يغمر شتاءها الناصع. بحيرات وغابات ينضح فيها جمالٌ وحشيٌ دافق...

وصل نادر آنسي مع بدء عصر الإكتشافات البيولوچية العملاقة. لم تعرف البشرية، كما يقول فلاسفة العلم، ما يُضاهي جوهرية وجسامة هذه الاكتشافات منذ اكتشافي دوران الارض ونظرية النسبية. وصَلَها بعد ولادة أشهر نعجةٍ في العالم، الآنسة دُوْللي، ثالث مخلوقٍ وُلِد بطريقة غير أليفة منذ فجر التاريخ (بعد أمّنا حواء وسيدنا عيسى عليهما السلام). خرجتْ دُوْللي من بين صُلب وترائب الهندسة الجينية. صُمّمت لتكون مناسخةً لنعجةٍ راشدة، أي نسخةً طبق الاصل منها. أُخذت خليةٌ من جلد هذه النعجة الوقورة، ثمّ أستُؤصِلت نواتها وَوُضِعت محلّ نواة خليّة جنينٍ عمرُهُ ستةَ وعشرين يوما. أُخْصِبَتْ وتنامت هذه الخلية المزدوجة، كما شرح لي نادر، في أنبوبة إختبار، حتّى صارت جنينا مضغيا. غُرس هذا الجنين المعمليّ في رُحم نعجةٍ حملته وأنجبت في يومٍ مشهودٍ مخلّد نعجةً أشهر من نار على علم، إسمها الآنسة دُوْللي. بَلغتْ السيدة دُوْللي سنّ الرشد بعد ذلك، وصارت أُمّاً لِخلفٍ صالح مبارك، أكبرهم بُوْني الذي غدا، مثل أُمّه، يتفجّر قوّة وسعادة واكتنازا ونشاطا.

قال لي نادر (الذي زيّن صدارة ردهة استقباله بصورةٍ عريضة لدُوْللي): «تصوّرْ أنه يمكن لأيّة خلية في الجسد أن تحلّ محلّ الحيوان المنوي! يمكنُ لتصميم أطفالٍ جُدد إخصابُ بيضةِ أنثى بجيناتٍ أية خلية تؤخذ من الجلد او من الأذن، من الدمّ او من اللُعاب...» تحدّثَ لي باسهاب كيف يمكن في هذا الزمن البيولوچي المثير مزج جينات من مناشئ مختلفة لصُنعِ يرقاتٍ او جنائن جديدة تَحملُ مواصفات أصولها المتعدّدة. أخبرني أن أسطورة الكيميراء (ذلك الوحش اليوناني الخرافي الذي يحمل أعضاء أسدٍ وماعزٍ وأفعى)، أو أسطورة الآلهة المصرية القديمة التي تحمل رأس كلب فوق جسد إنسان، أو ابوالهول نفسه،

أو حتّى ملكةُ بلاد العطور، تلك الملكة الفاتنة الزكية التي استقبلها الملك سليمان على قصرٍ مُمَرّدٍ من قوارير كيما تكشفَ عن ساقين ظَنَّ بعضهم أنّهما ساقا بقرة... لم تعُد في عصر الهندسة الجينية مجرّد أساطير غرائبية ليس إلا. لم تعُد مستحيلة المنال بالمعنى الحرفيّ لهذه الكلمة. ثم أسهب نادر في عرض أبحاث وتجارب حديثة إستطاعت مزجَ متواليات من دنا نباتاتٍ وفيران وما إلى ذلك من عجائب وغرائب تشبه أفلام الخيال العلمي، اقشعرّ بدني من هولها وإذهالها.

في هذه السنوات الجرداء التي أقفرت بعد رحيل اسميرالدا، عَزلَ نادر نفسه عن كلّ شئ إلا عن البحث العلمي المكثّف. فتح له كلّ نوافذ وُجْدانه وَوَهب له كلّ تلافيف دماغه. لا شئ عدا ذلك يستحقُّ أدنى ذكر: حبٌّ عابرٌ هنا وهناك، إستراحةُ نقاهةٍ في عوالم جديدة لا تعرفُ القات والحروب القبلية والملاريا... لا يعني ذلك أنه نسي سلوى الغرناطية (أيمكن أن ينسى أنسانٌ حوريّةً فاتنة كسلوى الغرناطية؟) كلّا. لأكُنْ أكثر تحديدا: لم يعُد يَبكيها جهرا كما فعل ذلك عاما كاملا... عندما يضنيه الإعياء الشديد بين الفينة والفينة، ينظرُ نحو البعيد وكأن ثقبا سينفتح في الافق، ليَلوحَ منه هودجٌ تنام فيه أميرته البوهيمية. وعندما تستعمرهُ لحظةُ ضعف، تسرحُ عيناه في أطراف الشعاب الجبلية، يمشّطها بناظريه دون وعي، وكأنه سيلمحُ اسميرالدا تحوم في أرجائها برشاقتها الملائكية. ثمّ يغتالُ بنات أحلامه، ويُعيد التسكّع في الخطوط البيانية المتكاتفة التي تنساب إلى مالانهاية على شاشة «راسم متواليات الدنا». يتوقّف في نُتفٍ منها، وكأنما يبحث عن فقراتٍ تفسّر مرضاً ما، لوناً ما، سرّا ما...

في آنسي صار البحث هدف حياته الوحيد. ترأس فريقا من الباحثين أذهلهم تفانيه المتطرّف للبحث العلمي. لا يُشاهد التلفزيون، لا يقرأ الصُحف، لا يقرأ إلا مقالات الابحاث البيولوجية، يلتهمها إلتهاما، ينام قليلا ثمّ يُعاودُ دورته الدموية باحثا عن طرق لتحسين تقنيات تمّ ابتكارها مؤخرا، أو عن تقنيات جديدة لإصطياد جينات تحملُ أمراضاً دفينة، لإستبدال جيناتٍ بأخرى، لخلطها كما تُخلط أوراق لُعبة «البطّة» (الورَق)... حتّى رسائله، عَلَيَّ أن أعترف، عادَتْ لعادتها القديمة: جافّةً مُضجرة. يُرسلها رجلٌ آلي نَسِيَ غمزات المجاز ولُعَب البلاغة. أقرأُها بشكلٍ مُثَقّب أو أعبرُ خطّها القُطري بمسحة واحدة. لكن لحسن حظّي ان معظم رسائله لم تعُد تصلني بسبب ما آلت إليه أوضاع بريدنا في هذه الايام.

تخصّص فريق الابحاث الذي يقُودُه نادر بتصميم تقنيات ل«أنْسَنَة» بعض الحيوانات كالخرفان والخنازير، عبْر مزج جيناتها بجيناتٍ إنسانية، كيما يُمكِنُ استعمال أعضاء هذه الحيوانات «المتعددّة المَنشأ» كقطع غيار لاستبدال أعضاء المرضى من بني البشر. «أُنْسنَتْ» هذه الحيوانات بما فيه الكفاية من أجل أن لا يرفض أعضاءَها جسدُ المريض كما يَرفضُ عادةً بمناعته الطبيعية كلّ دخيلٍ يأتي من أصناف وسلالات بيولوجية بعيدة عن فصيلته الآدمية.

رعيلٌ جديدٌ من الحيوانات «المؤنسنة» بدأ يصلُ الى سوق البيولوچيا. ربما كان أشهر بواكيرها الحَمَل الشهير: «پولي» الذي يحملُ في خلاياه جينةً تُفرزُ بروتينا إنسانيا. كباشٌ وُلدت لتهبَ رئاتها يوما للانسان. خنازيرٌ وُلدت لتمنَحهُ أكبادها. وربما «أُنسنت» حَميرٌ لتُهديه يوما ما أدمغتها... عفى الله عمّن عَرَّفَ الانسانَ يوما بأنه «حيوانٌ رومانسيٌ رقيق».

« الحياة ليست نهرا طويلا هادئا » كما تقول حكمة غربية. حياة نادر في آنسي، رغم انتظامها ورتابتها وهدوئها وخصوبة إنتاجاتها العلميّة، عكّرها شئٌ مطبوعٌ ولا شكّ في إحدى جيناته: تشمّعت أو ترمّدت كليتاه مثلما حدث لوالده. مَرِضَ بنفسِ مرضه. ربما كانت تلك أفضلُ هديةٍ يستلمها سعيد الغريب بعد مماته. لِينَمْ « أبونادر » هادئا قرير العين في مقبرتهِ المحاذية لِحيّ العيدروس. ولينسَ، إن كانَ له أن ينسى، ذكريات وفاتِه المؤلمة بكليتينِ ذابلتينِ، في بلدٍ لا تُستَبْدَلُ فيه الكلى التالفة.

لسوءِ حظّ نادر أن قطعان بهائمه المؤَنْسَنَة لم تَكُنْ بعدُ يافعةً بما فيه الكفاية ليتمّ استبدالُ كليتيهِ من مستودعاتها. حزّ في نفسه ذلك. كان يرنو جادّا الى استبدالها من حقول كلى مختبره، رغم معرفتهِ الجيدة بأن هذه التقنية لم تصلْ بَعْدُ الى سنّ الرشد هي ايضا. ذلكم هو نادر، جرئٌ متحمّسٌ مغامرٌ شجاع. وهذا هو الباحث العلمي في كُنهِهِ الغائر، مجنونٌ مغامرٌ متفانٍ، لا يُفكّر إلا في دخولِ التاريخ من الباب او من النافذة، من السقفِ او من إسطبل البهائم إذا استدعى الامر.

نجحتْ عمليةُ استبدال كليتيه في إحدى مستشفيات آنسي. إلا أن الذي غادرَ المستشفى كان نادراً آخراً يختلفُ كثيرا عن ذلك الذي دخلها عشيّة العملية الجراحيّة. لا أقصدُ هُنا أنّ ميكانيكا نظام حياتهِ الڤيزيولوچية قد تغيّر وَحْده. فكلّ من تزوّج بكليتين جديدتين يعاملهما كبؤبؤي عينيه. يحرصُ على تجنيبهما ترشيحَ دمٍ محتقنٍ بكثيرٍ من الاملاحِ والمياهِ المُعكّرة. كلّ من زُرِعت له كليتان جديدتان يرمي الملح والفلفل وبقية البهارات في مزبلةِ المطبخِ ويُحصي في كلّ جرعةٍ ولقمةٍ نِسبَ شوائب الكالوريات التي ستُرْهِقُ كليتيه… بل أقصدُ بالتحديد ان معتقدات وأحاسيس جديدة متناقضة هيمنت عليه وغيّرته كثيرا.

بدأ يفقدُ بعضا من عقلانيته المتينة وتستهويه بدلها أفكارٌ باطنية غريبة. إعتقدَ أن له موعدا مع أجسمِ الاكتشافات البيولوچية المستقبلية نظّمه لهُ صانعُ الحظوظ والمصادفات. وما شامَتهُ ولونُ شعرِهِ وعينيه، وما هاتينِ الكليتينِ الجديدتين إلا إشارات أتتهُ من وراء السماء. علامات نبوّةٍ في علوم الاحياء. تحوّلَ بعدها إلى باحثٍ صوفي قدّم كل ثواني حياتِهِ لعلوم الاحياء. لا يتحدّث مع أي إنسان إلّا عنها. لا ينطِق ببنت شفة في وجبةٍ أو في حديثٍ عابر، في منتصف المساء أو في الصباحِ الباكر… إلّا عنها. وكأنه إذا أضاع ثانيةً في غير ذلك فهو يخون من اصْطَفاهُ على الباحثين منذرا وبشيرا. لم يعُد يفكّرُ حتى في رحلةِ سياحةٍ وتجديدٍ واستمتاع. لم يعُد يتوقُ الى حبٍّ عابرٍ يمنع صدأ وتعطُّل عواطفه، أو إنقراض بعض اعضائه البيولوچية التي يجفلها النسيان. وَحْدَها معاناةُ البحثِ الصوفي تأسرُه قلبا وقالبا، يتهجّد لها في آناء الليل وفي أطراف النهار…

أما ثاني متغيّرات نادر بعد خروجه من المستشفى فهي عداءهُ للبرد الذي بات يزعجُهُ في الصميم. يداهمهُ لذلك بين الحين والآخر حنينٌ جارفٌ لبلاد الفلّ اللحجّي. حنينٌ عضويّ، يجدرُ ان أقول، لتلك المدينة التي يطمحُ كلّ من استُبْدلت كليتيه ان يقطن فيها. عاصمةُ مزروعي الكليتين النموذجية كما شاءت لها جينات الطبيعة. تلك المدينة التي تحيا فيها الكليتان في سباتٍ يدوم أربعة فصولٍ كلّ عام. لا حاجة في تلك المدينة الى ترشيح الدم عبرهما لتحويلِ مياهِهِ واملاحهِ الى مخلفاتٍ بولية. كلّ شئ يتصبّبُ فيها عرقا. مدينة

العرقِ الدائم. نافورةُ عرقٍ لا يتوقف. عَرقٌ هادرٌ مدرار. عَرقٌ ينهمرُ ليلَ نهار. مدينةُ المسامات الفتيّة التي ترحمُ الكليتين. مسقطُ رأسه. عَدَنْ.

لكنّه حارب من جديد ذلك الحنين الخائن. حارَبَهُ بمزيدٍ من البحث الصوفيّ الذي لا يسمحُ بالتفكير بذكريات الماضي، بتقلُباتِ الفصول، بحرقة الجسد وظمأه... أثملتْهُ في سكرة بحثه «فتوحٌ ربّانية» أذكت عطشه لمزيدٍ من التجارب والمحاولات، لمزيدٍ من الفحوصات والمقارنات، لمزيدٍ من التجريب والفرضيات: أعضاءٌ تُستبدلُ بنجاحٍ نسبيّ. قلوبٌ ورئاتٌ مرشحةٌ لاستبدالٍ أفضل. دروسٌ وعبرٌ تتراكم... مازالت أسوار حصن «مناعة الجسد ضد الاعضاء المستوردة» لم تسقط كليّةً بعد. لكنّ ثمّة ابحاثٌ واعدة تفتحُ الباب لأبحاثٍ أكثر وعدا... ونادر يجدُ في متاهاتها ملاذَه ومرتعَ هروبه. من البرد. من ثلوج الشتاء. من الحياة في مدينةٍ تعطّلتْ مسامات ساكنيها. من الحنين. من جنّيّينِ يُغادران قمقميهما بين الآن والآخر: اسميرالدا وعَدَنْ. نسيَهُما كُليّةً هذه المرّة. نسيَ كليتيه المرهقتين. نسيَ كلّ شئ وهو يكدّسُ أكوامَ البنكرياسات والطُحال المؤنسنة في مستودعات مختبره.

نسيَ قَطْعاً كلّ شئ...

نسيَ قَطْعاً كلّ شئ...

كان يوما عاديا ذلك اليومُ الذي وصل الى مكتبه تقريرٌ سنويّ تقليديّ جدا يحوي أسماء البلدان التي تملك كمياتٍ تجارية من قطَع غيار أعضاء الانسان. وجد، في مكانٍ مرموقٍ من هذه القائمة، بلدا أسدل الستار عليه كلية: بلاد سدّ مأرب! ناهيك أن أسعار الاعضاء المنتجة في ذلك البلد بخيسةٌ جدا. لا يمكن أن تنافسها أسعار أعضاء مختبره.

لم تُكدّرهُ هذه المنافسة، بقدرِ ما كاد يقفزُ فرحا. شيطان الاقتصاد الانتاجي خرج من قمقمه. من مسامات مطرقةٍ ومنجلٍ شامتة. هاهو البلد الذي نساه يتحدّى تقنياته وينافسُ تكنولوچياته. ألم يسمع عندما كان صغيراً أن الحكْمة يمانية؟ أما آن لنادر أن يترجّل، وأن يستديرَ على أعقابه ويعودَ إليها وقد انتهت مبررات الهروب؟... تساءَل فجأة إذا لم تكن اسميرالدا تتسكّع هنالك، في مكانٍ ما في جبالِ إبْ أو في وادي دَوْعَنْ، في كوكبان أو في الخوخة، في ساحل أبْيَن أو في جبل صيرة... ألم تقُلْ في آخر رسائلها: إلى لقاءٍ قدريٍّ في عَدَنْ أو في باب المندب؟...

نادر، الذي يعرف كيف يتّخذ قراراته في ثوانٍ، قرّر ان «يُعطّف» من جديد. أن يعود إليها ويمزج تقنياته بتقنياتها. لم يعُد هناك مبرّرا للانتظار لحظةً واحدة. سيفتحانِ معا صفحةً جديدةً من ألمعِ صفحات «الثورة البيولوچية». إنها لحظة الوحي. لحظة النبوّة في علوم الاحياء التي ماانفك يستلمُ علاماتها الباطنيّة منذ ولادته.

شَعرَ بغتةً بلحنٍ يصعد من أغوارِ الأرض السابعة ليُدوّي في مسمعيه. لحنُ أغنيةٍ طمرها الزمن. أغنية نساها نادرُ كليّةً قبل أن تنتفض بسرعة البرق كعاصفة في الصحراء: «ردّدي أيتها الدنيا نشيدي...» ذكرياتٌ مفاجئة تجتاحه. تغشاه على حين غرّة. تَذكّر عندما كان «يُزربهُ ديمُه» أمام بيْتَيْها الجميلين:

عشتُ إيماني وحبّي أُمَمِيّا ونشيدي فوق دربي عربيا

وسيبقى نبض قلبي يمنيّا لن ترى الدنيا على أرضي وصيّا

كان يُحِبّ كثيرا دوائرها الثلاث: «يمنيّا، عربيّا، أُمَمِيّا» التي تتوسّع وتتداخلُ

كعرائس الماتريوشكا.

لحسن الحظ أنه لم يعرف أن كلمة: «أُمَميّا» أستبدلت (بطريقةٍ عشوائية لا تحترم النصّ، ولا البلاغة، ولا عرائس الماتريوشكا الثلاث...) بكلمةٍ أخرى: «سرمديا»، لا محلّ لها من الاعراب في سياق هاتين البيتين. كلمةٌ ادبيةٌ في غاية الجمال دون شك، لكنّها مقْحمةٌ خارج بيئتها، طفيليّة، دون أدنى صلةٍ بالفكرة الاصيلة للبيتين ومستوياتها الثلاثة، أُجبرت في هذا السياق الجديد على أن تكسر خاطر القارئ وهي توصِدُ عليه بتعسّف البابَ المؤدي للدور الثالث، دور الاعالي.

ربما كان نادر، كما أَظنّ، سيُلغي مشروعَ عودته لأنه لا يحبُّ الحماقات كثيرا. كان سيتسآل حتما: كيف خطر ببالٍ من غيّر كلمة «أُمَميّا» ب«سرمديا» انه يمكنُ الخلطُ بين كلمة «الأممية» بمعناها الأزلي، و«الأممية البروليتاريّة» ذات المدلول الحديث المختلف؟ كان سيقول دون شك إن من حشرَ كلمة «سرمديا» في هذا السياقِ، إما أخرقٌ سامحَهُ الله، أو «سارقٌ برأسه قُشاشه».

أمّا أنا فلا «اتَفَحْتَت» إطلاقا مثل صديقي نادر. إكتسبَتْ نظراتي للأمور بُعْدا فلسفيا عميقا لئلا أقول خنوعاً نخراً زاد تأصله مع مرّ السنين. بدأتُ أتَذوّقُ حلاوةَ الهندسة الجينية وأجدُ لذّةً في فنون تَغْيير الجينات. إعتبرتُ استبدال الكلمتين في الاغنية نوعا من استبدال الجينات، ودليلا على وجود ملكات الهندسة الجينية في اليمن قبل ميلاد دُوْللي بسنين...

ما إن أكْمَلَ نادر قراءةَ التقرير السنوي حتّى أعلن لأعضاءِ مختبره مغادرتَهُ النهائية لآنسي! سأله زملاءه باستغرابٍ وذهولٍ شديدين عمّا يجعلهُ يهجرهم بغتةً، بلمحة بصر، وعمّا لا يروق له في اسلوب عملهم وحياتهم. أجاب أنه يحبّ كثيرا هذه المدينة الطيبة، كل شئ مهذّبٌ وبهيجٌ في نمط حياتها... إلا أن قبورها باردةٌ جدا في تقديره. يشعرُ أنه لن يتحمّل برودة قبورها...

بعد اسبوع واحد، وصل نادر مطار عاصمة بلاد سدّ مأرب.

٤

ربما لزمني، قبل أن أواصل تقطير سيرة نادر، أن أزحلق كلمتين للتعريف بي أنا الذي أروي لكم سيرة صديق طفولتي منذ البداية. لا أقصد هنا عرض سيرتي، فليس فيها ما يتميّز عن سِير أسراب غير المغضوب عليهم ولا الضالينَ من تعساء هذا البلد المسكين. مثلهم، يقترب منّي شبح الجوع والفقر المدقع بخطىً متسارعة. مثلهم، أستلم راتباً شهرياً يقلّ عن الخمسين دولار، راتب كلبٍ مهانٍ في أفضل التصنيفات. مثلهم، عشت وأعيش الحروب اليمنية المتتالية، أنتقل من بؤسٍ إلى بؤس أشنع. كالحاً، منكوداً، ممتهناً، أولدُ وأموت. دون أن يخطر ببال أيٍّ من الحكّام الذين أغرقونا ويغرقونا في بحر المهالك أن يبصق في وجهه كلما رآه أمام المرآة. ربما كان ذلك أفضل وأنبل ما يستطيعون عمله.

حان أوان أن أذكر إسمي. ليس لأنه يستحق الذكرعلى الإطلاق، بل لأن له علاقةً بنادر وسلواه الغرناطية. أو لأقل بالأحرى أن اختفاء هذا الإسم عن ذاكرة كلّ من يعرفونني مردّه

الوحيد إسميرالدا. الحقّ أن لي إسمان. الأول الذي لم أتجرأ على ذكره منذ الصفحات الاولى: أحمد الزبيدي. إسمٌ على مسمّى! إسمٌ لا يحمل أية ابّهة. لم ولن يُحشر قط في عبارات من نمط: إذا مات أحمد الزبيدي فكلّكم أحمد الزبيدي... أما الإسم الآخر الذي أُلصق بي بعد أن حدّثني نادر عن إسميرالدا ورغبتها بزيارة صيرة فهو: عبده إسميرالدا. إسمٌ إغتال سلفَه ومحاه من كل ذاكرة، حتّى من ذاكرة الوالدة العزيزة.

لأوضّحَ علّة ذلك، يلزمني أن أصارحكم أن وجودي تغيّر كلية بعد أن حدّثني نادر عن إسميرالدا. أصبح لي مشروعٌ وهبتُ نفسي لتحقيقه ومحورٌ تدور حوله حياتي الجديدة. هدفٌ وحيد: رؤية إسميرالدا قرب صيرة.

في حياتي البائدة، كنت أقضي أياماً رتيبة آسنة، دون إثارةٍ أو أمل، تضيع معظم ساعاتها في مجلس قاتٍ في «الدُرَين» مع صحبة طفولتي الذين لا ينقصهم إلا من قُتلوا أو ماتوا أو إبتلعتهم متاهات واقعنا المجنون، أقصد الغالبية الساحقة منهم. منذ أن حدّثني نادر عن إسميرالدا التي تحلم بزيارة صيرة غيّرتُ مجلس قاتي اليومي. أصبحتُ أذهب يوميا إلى «صندقة» في مدخل صيرة. أقرفصُ تحت ظلّها، قرب مالكها الذي صرتُ نديمَ معظم ساعات يومه، أصوّب نظري نحو كلّ المارّة وأحملق في كلّ فتاةٍ تقترب من الجبل. لا أنتظر إلا سائحةً هائمةً تشبه سلوى أحلامي. أتلظّى شوقاً لساعة رؤيتها. أنتظر تلك اللحظة الربانية التي أبعث فيها حالاً ألف فاكسٍ لنادر أو أحدّثه بالتلفون، أنا الذي لم أحدّثه منذ سفره، ولم أرد على أيٍّ من تِلالِ رسائله. بات ذلك أملي اليتيم في الحياة وهوسها الطاغي.

دون وعيٍ كنت أهمس بصوتٍ معتدلٍ: «إسميرالدا» إذا أطلّت على صيرة ممشوقةٌ حسناء تقترب من مواصفات إسميرالدا مخيلتي. علّها تنظر في إتجاه الصوت. علّها تكون هيَ، بقامتها الرشيقة وعينيها الساحرتين، بلونها النحاسيّ وبشرتها المخملية، بكتفيها الطليقين وشعرها المسافر في كل الدنيا... أثار همسي المتواتر بإسم إسميرالدا إستغرابَ مالك «الصندقة»، الذي عمّدني بالإسم الجديد، عبده إسميرالدا. إسمٌ انتشر بين جموع من يعرفونني كالنار في الهشيم.

عندما استلمتُ رسالة نادر بعد شهرٍ من بعثها، فوجئت به ينبؤني أنه قادمٌ بعد أسبوع. لم أتردّد لحظة هذه المرّة بنسخ ردٍّ على رسالته رغم أنني افترضت جادّاً أنه وصل صنعاء قبل أكثر من نصف شهر.

« عزيزي نادر

إعقلْ هداكَ الله! هل صرتَ مجنونا؟ لا توجد هنا مختبرات علم أحياء – ولا يحزنون– . سماسرةٌ يستغلّون جوع الفقراء. يبعثونهم لبعض الدول الغنية المجاورة لبيع أجزاء من أجسادهم مقابل حفنةٍ من الدولارات. سماسرة العار والحقارة لا غير! يبيعون أنسجة البؤساء وأعضاءهم لمرضى دول الاغنياء. يفضّلها هؤلاء على الاجساد القادمة من أحياء فقراء الهند أو غيرها من المناطق البعيدة. لقلّة تكلفتها بالتأكيد. لمجيئها من بلدٍ شقيق وقريبٍ جداً دون شك. وكأنها أعضاء كباشٍ مذبوحة بالحلال.

هل فقدتَ الصواب؟ كيف خطر ببالك أن يتأتى إنتاج هذه الأعضاء بطرقٍ أخرى؟ في مختبرات البحث العلميّ، قُلتَ، سامحك الله! غفرَ الله لك! إنها معصرةٌ لاستنزاف

الجياع! كم أصبحتَ تسبح في فلكٍ يتنافر يوما بعد يوم عن فلكنا! إذا سمعتَ يوما عند وصولك عن عناوين كهذه: «محلّات الزيّات، لبيع أجود أنواع الرئات»، أو «محلّات بن يعقوب، لبيع أجود أنواع القلوب»، أو«محلّات السلّال، لبيع أجود أنواع الطحال»... فأعلم، عزيزي نادر، أنها ليست أسماء مختبراتٍ علمية تُنتج قطع غيار بشريّة. إنها ملجأٌ قسريٌّ لمُعْدمِين يبيعون أنفسهم أو أطفالهم. مستنقعات حديثة تشرح لوحدها كلّ بشاعة هذا الزمن المجرم في هذا البلد الجريح.

لك كلّ أشواقي وتحياتي. »

لم أعرف ماذا أفعل برسالتي هذه. أأرسلها ولعلّه وصل قبل أسابيع؟ أستَصِلُه في هذا الزمن الذي أصيب فيه بريدُنا، هو الآخر، بالملاريا؟...

بدأ الهلع يساورني عندما تعاقبت الأيام دون أي خبرٍ من نادر. تداخلَتْ في رأسي أسباب وافتراضات وكوابيس اندلعت من كلّ حدبٍ وصوب. ثمّ قرّرتُ بغتةً أن لا أبعث رسالتي وأن أهرع حالاً، في هذا الزمن الملفوف بالمخاطر، للبحث عن صديقي القديم.

نحوَ صنعاء توَجّهت بحثاً عن خيطٍ يقودني إليه.

بدأتُ بسائقي تاكسيات المطار. حاورتُ الواحد بعد الآخر سائلاً عمّن قاد منهم منذ حوالي أسبوعين مسافراً يمنياً ذهبي الشعر أزرق العينين. ساعدني تميّز خلقته الساطع في التأكد من وصوله. قال لي سائقٌ أنه حمل مسافراً، «يُطلي شَعْره بالزعفران»، نحو باصات عَدَن بعد أن طلب منه أن يطوف به في كلّ أحياء صنعاء التي يُكّن نادر لمعمارها تدلّهاً مفتونا لا يفوقه تدلّه. سألت السائق لماذا أراد نادر الذهاب بكلّ أمتعته وحقائبه نحو تلك الباصات بدلاً من السفر لعدن بالطائرة أو حتّى بسيارة أجرة خاصة. قال لي إن نادر أستحسن أن ينغمس بعمقٍ وبسرعة بسكّان بلدٍ إفتقدها منذ دهر، أراد أن يستنشق روائح أجسادهم، أن يُشبع ناظريه بجبال إب ومنحدراتها، أن يرى لَحْج في بداية الغسق، وأن يدخل عَدَن في جنح الليل، هو الذي عشق إلى حدّ الجنون ليلها الملائكي الرائق. عندما قال لي السائق انّ مسافرهُ أراد أنْ يملأ رئتيه برائحة هذه الأرض وأن يغوص طويلاً في بوتقة حركةٍ وهدير أبنائها، أيقنتُ سريعاً أن هذا الراكبَ كان نادر نفسه، بعينيه الزرقاوين وشامته البروليتاريّة.

سألته: «ماهي أول عبارةٍ سمعها نادر عند دخوله صنعاء؟ » إعذروني جميعاً إن حاولت بهذا السؤال إشباع ملذاتي الصغيرة. فلكم أهتم بلذّة بتجميع أول عبارة في كل صفحةٍ جديدةٍ من صفحات الحياة: في تصريح حب، في رواية أدبية، في عشقٍ جديد... بدأ هذا الهوس يجتاحني عندما طنّت في أذني أعظم البدايات: «إقرأ بإسم ربّك الذي خلق»، ولم يُعانِ هوسي هذا من معضلةٍ سوداء إلا عندما أغمَضَ نادر عينيه وهو يتلو أول كلمة عشقٍ لسلواه الغرناطية، وتوقّف هوسي مؤخراً على البداية العميقة الرائعة لرواية «زهرة البن» التي حدّثني عنها نادر كثيراً: «من مشنقةٍ إلى مشنقةٍ فَرَجْ»...

أجاب السائق: «حق القات يا أفندم!». هذه أول جملةٍ ولجت آذان نادر في عاصمة مسقط رأسه. راهنتُ، أنا الذي أعرف صديق طفولتي عن ظهر قلب، أنه كاد يتقيأ دواخله في تلك اللحظة.

في جولته السياحية التي أراد بها أن يستحمّ في معمعان رائحة الجماهير رأى نادر

ما رأى واستنشق ما استنشق. أسمالٌ مهلهلةٌ متعفّنة. هياكل بشرية تصرخ جوعها. نهارٌ يشبه ليلاً مسكوناً بالاشباح. شمّ روائح ڤيروسية تتدفق من جبال النتانة وأنهار البالوعات. لم تكن السعادة هي أنصع سمات هذه المدينة وأكثرها قفزاً للعين. رأى وهو يطوف بأحيائها بائعي مخطوطات وآثار مسروقة. بورصات لصوصٍ وبضائع تهريب. مرّ بأحياء كبار الصرّافين (نهّابون امتزجت متواليات الدنا لديهم بمتواليات دنا التماسيح، إذا سمح لي نادر باستعارة أنماطه التعبيرية الأثيرة). بدا له أنه يتوغل في حلمٍ مزعج. طلقات آربي جي هنا وهناك. سيلٌ من الرصاص يلعلعُ بين الآن والآخر. جراثيم فسادٍ ناغلٍ في خلايا المدينة...

لعلّه تسآل: «كيف للهندسة الجينية أن تتطوّر في واقعٍ كهذا؟». ولعلّه أجاب، وقد داعبته نسمةٌ رقيقة في ذلك الصباح الصنعاني اللذيذ المنعش: «الحكمة يمانية!».

عرّفني سائق التاكسي بسائق الباص الذي امتطاه نادرفي إتجاه عَدَن. لم يكن صعباً عليه أن يتذكّر، ككلّ من رأى نادرَ يوماً، وجهَه النادرَ الغريب. سألته كيف وصل نادر لعدن وأين توجّه. أجابني أن نادر عاد لصنعاء من جديد! لم أفهم شيئاً قبل أن يشرح لي أن جماعة قطّاع طرق مدجّجة بالسلاح أوقفت الباص في طريق العودة، نهبت كل ممتلكات المسافرين، كلّ حقائب نادروأمتعته. حتّى أحذيته الانيقة! ثمّ هربت العصابة تاركةً ركّاباً بلا نقودٍ ولا حقائب.

أردف السائق: خرج نادر من الباص عاري القدمين، بملابسه الداخلية لا غير. إتّجه بعدها نحو صنعاء، كما عرفتُ، للإستعانة بالشرطة ولإستعادة ما نهبه اللصوص كما قال. لم أعرف بعدها شيئاً عنه.

لم يكن أمامي غيرالهروع للإستفسار عن نادر في كلّ مراكز شرطة صنعاء.

عبثاً تنقّلتُ من شرطة إلى شرطة ولهثتُ من ركنٍ إلى ركن. سألت القاصي والداني دون فائدة. لم يرَهُ أحد. مواعيدٌ كاذبةٌ هنا وهناك للتنقيب والعثور عليه خلال يومٍ واحدٍ إذا دفعتُ مبالغ لا حول لي بها ولا قوّة. ثمّ نصَحَني من نصَحَني أن أكفّ عن السؤال عمّا حدثَ لذلك «الشيطان الخطير»، كما قال، إذا أردت أن لا أنال مصيره.

لم يبق لي إلا أن أحاول حينها، كالعادة، أن أقرأ ماكان يدور في خُلد نادر وهو يمشي في شوارع صنعاء حافي القدمين. مهمّة شاقة إنضافت لمهامي القديمة. قلتُ لنفسي: ربّما شعر نادر في أغوار سريرته بنوعٍ من اللذة وهو يسير بأقدام عارية طليقة، هوَ الذي لم يخْطُ خطوةً واحدة دون قيود الأحذية منذ أن حطّت قدماه في تلك البلدان الثلجيّة التي تكبّل الجسد بأطنانٍ من المعاطف والألثمة الثقيلة. أو ربما انبجست من جديد وساويسه الباطنية التي بدأت تُراوده بعد زرع كليتيه، وطنَّ في جوفه نداءٌ يشبهُ: «إخلعْ نعليك إنك في الوادي المقدّس طُوى»، وارتعش هلعاً وكأنه قاب قوسين أو أدنى من موعد اكتشافاته البيولوچيه الذي شاءه له الملأُ الأعلى من أبد الآبدين...

لم تُربِك استفساراتي هذه إلا تساؤلات كانت تشُقّها عموديا. فبين الفينة والاخرى كنت أسائل نفسي إن «كانوا»، بكَرَمهم المديد، قد وهبوه قبل موعده البيولوچي مأدبةَ «المطفّاية» وخبزالطاوة وثمرة العاط الكبيرة، التي حَلمَ بها في طفولته. («كان نادر يستحقّ ذلك على الأقل»، ردّدت متنهدا). وإن كانوا، بلُطفهم الدافق، قد سمحوا له بعد تلك

الوجبة بالصعود إلى رأس جبل عَيْبان ليلفظ فيه آخر حسراته، قبل أن يبحثوا له، بكلّ رقةٍ وعرفان، عن تجويفٍ صخريّ دافئ، دافئٍ كما يروق له، ينامُ فيه ردحاً طويلاً من الزمن.

نيويورك- وادي دَوْعن، إبريل ١٩٩٩
روان- الحديدة، يونيو ١٩٩٩

رحلَةُ العُمر

كلّا لم تبقَ بعد دقائق أو ثوانٍ. لقد إمّحى الزمن، فسادت الأبدية، أبدية من لُذاذات.
بودلير

كان قبرا جماعيا ذلك الجهاز الذي مخر عباب الفضاء من صنعاء إلى القاهرة. إنقسم ركابه إلى طائفتين: المرضى المغادرون للعلاج ومرافقوهم. كان المرضى خيرَ ممثلين لمدينةٍ «عاشقاها السلُّ والجربُ». والملاريا. والكوليرا. والشلل والطاعون. وكثيرٌ من أمراض العصور البائدة. كانوا خير نخبةٍ نموذجية من مستضعفين استفحل بهم الداء، إن لم يكونوا، رحمهم الله مقدما ووهبهم فسيح رضوانه، على بعد سويعات صغيرة من مثواهم الاخير.

على يساري في المقعد المجاور، مريضٌ نخره السرطان. هيكلٌ لا يفصل عظامه عن جلده فاصل. أظن انه سيسلم روحه لِباريها قبل الابتعاد كثيرا عن الربع الخالي أو بعد هبوط الطائرة بقليل. على يميني في الجانب الآخر من رواق الطائرة، أبوان يحيطان بإبنتهما الشابة المسكونة بأمراض جاثمةٍ عويصة. تنتابها بين الحين والآخر اضطرابات عصبية حادة تضمر خلالها أعين والديها ويعصر وجههما ألم جاف. تصرخ حينها بأنات يرتجّ لها هيكل الطائرة فيما يتوتر وجهها وساعداها وترتعش أطرافها مثل راقصات الاوبرا التراچيدية.

نحيبٌ مسموعٌ وغير مسموع ينبعث من كلّ مقاعد الطائرة.

كنت أنا، سالم عبدالجبار عبدالقوي، من طائفة المرضى لاالمرافقين. مريضٌ بلا مرافق. من عشيرة المنكوبين بامراض القلب بالتحديد. يبدو أن قلبي يشرف بين لحظة وأخرى على السكوت. «سيفركُ» عمّا قريب، سوف «يقندلُ» لا محالة، أردّد دوما. تعطّلتْ معظم شراييني عن الضخ، وغدا بعد أن رخت عضلاته وانقبضت صمّاماته لا يستحق حتّى البيع في سوق «الحراج».

كنت سعيدا بما فيه الكفاية بعد إقلاع الطائرة من مطار صنعاء، رغم أني كنت أعيش لحظات سماوية تشبه الدقائق الاولى من يوم الحشر. ربما سر ذلك أنني بدأت أشعر بخلوةٍ رهيفةٍ رقراقة وسط مناظر تنثالُ سريعا أمامي: مدينةٌ تتوسّد الأعالي أودعها بقبلات أعين والهٍ يعشق جمالها حتى الثمالة، جبالٌ شامخة نُحتت لتصير سلالم حقولٍ عملاقة ينتعش دماغي أمام تناسقها المبدع وانسيابها السريع، زبدٌ من سحبٍ بيضاء كأنها حمّامٌ كَونيٌ أنغمرُ في رغوته اللامتناهية... ثمّ بدأ البحر الأحمر يلوح أسفل السحب، شاسعا، ممتدا، أزرقا كزرقة عيني مضيفة الطائرة، سعاد، التي لمحتها تعبر الممر المحاذي لمقعدي، هيفاء ممشوقة، فاتنة الملامح، وإن لم تخلُ نظراتها من نوعٍ غريبٍ من الحسرات الصامتة العميقة.

ربما لم تكن الخلوة ورؤية سعاد وحدهما منبع ابتهاجي المخبول. إختراق القشرة الجوية منحني إحساسا لا يخلو من الإثارة المخدرة. تفاصيل ديكور هذه الرحلة بدت لي

خليقةً بمسرحٍ تراجيدي فضائي عبقري التصميم. ثمّ أني شعرت في غمرة تأملاتي العلوية بنشوة اكتشاف نظرية لم تخطر ببالي قط من قبل، رغم أنها أكيدة نافلة إن لم تكن ذات بداهة صارخة: الطائرة هي المكان الوحيد الذي لا يعترضك فيه شحاتون وجياع في هذا الزمن الجديد الذي فاقت فيه نسبة الشحاتين والجياع عصر الإمام بكثير.

غير أن خلوتي لم تعد الملاذ الوديع كما كانته في مستهلّها: قطرات ماء بدأت تُنطّف فوق رأسي من شرخٍ مجهري يقع في رفٍّ بسقف الطائرة فوق مقعدي. سرعان ما أضحى ذلك التقطير ينكدني ويعكر صفوي. لولا أنه سمح لي بأن أحقّق حلمي الكبيربالتحدث مع المضيفة والتعبير لها عن إمتعاضي من قرع تلك القطرات الرتيبة.

ولّت سعاد نحو ذيل الطائرة لتعود حاملة ضمادا صغيرا ألصقَته فوق مركز الشرخ. لاحظتْ دون شك ارتباكي ووقوعي تحت سطوة جمالها الفتّاك. ربما أدركتْ أيضا كم كنتُ أحاول عبثا تفسير أسباب وشاح الحزن الغائر في نظراتها العميقة. كان جليّا لي أنني أمام فتاةٍ بصدرها، كما يقول الشاعر، «من الأسى كربلاءُ»... ونهدان لا يكتنف شموخهما وكبرياءهما أي وشاح. شكرتها على «تضميدها لجراح الطائرة». ابتسمتْ دون مبالغة. ثم مكثتُ أتابع انسياب جسدها الرشيق وهي تعبر رواق الطائرة ذهابا وايابا، متمنياً ان أحظى بالحديث معها ثانيةً والتمتع برؤيتها طويلا، وربما استجلاء سرّ احزانها... لا أشعر بالجرأة هنا لأعترف لكم أن شيئاً ما بدأ يسري في عروقي ويتدفق نحو خلاياي العصبية. كما لو أن أوصال قلبي الرميمة بدأت ترتجف على حين غرّة، كما لو أن دفعات الحياة بدأت تتسرب إلى أنسجتها وتضطرم في شعيراتها الدموية من جديد. كما لو انني تعلّقت بسعاد على التو لئلا أقول لكم دفعة واحدة انني عشقتها بغتة من كلّ مشاعري...

لحسن حظي ان قطرات الماء عادت تتسلّل من مسام الضماد الذي ما لبث أن أدلى باستقالته من سقف الطائرة. غمرني الفرح وأنا أشكو لها من جديد عودة «هطول» قطرات الماء! ألصقتْ سعاد ضمادا أكبر مساحة هذه المرة، فيما كررتُ من جديد الإبتهال للّه والدعاء الخاشع بأن ينخلع سريعا هو الآخر لأدعو مضيفتي وأراها قريبا مني.

أطلقت المريضة الصغيرة التي على يميني صرخاتها الدورية لتخدشني مجددا وترميني في قاع مذبحة الواقع الذي هاجرتُه وأنا أسافر في أعماق عيني سعاد وقاراتها القصيّة. حزّ في قلبي – أو ما تبقت فيه من خلايا حيّة – التأوهات المتسارعة لمريض السرطان الذي يجلس بجواري والذي لم أتجرأ بالحديث معه أو النظر إليه. إعتراني ألمٌ في الرأس وفي المعدة. رغبةٌ لاذعة في زيارة الحمّام. توجّهت نحو دورة المياه في ذيل الطائرة. طابور المرضى الطويل الذي يتكدّس هنالك أدارني فورا نحو مقعدي. غير أنَّ حاجتي لتلك الزيارة كانت لسؤ الحظ لا تقبل التفاوض. لم يعد أمامي غير اللجوء لحمّام صالة الدرجة الاولى.

إعترض طريقي رجلٌ متحضّرٌ أنيق يقبع في واجهة الباب المؤدي لصالة الدرجة الأولى. كان يرتدي طقم بدلة إيطالية فاخرة، من ثلاثة قطع، رماديّة تميل إلى الزرقة، وربطة عنق حريرية كحلية فرنسية الصنع، تنساب فوق قميصٍ ورديٍّ من ماركة إنجليزية ارستقراطية. ابتسم باقتضاب وميكانيكية ابتسامة معلّبة أجلتْ، رغم سرعة

كسوفها، بياض اسنانه المنتظمة. قال لي بصوت جهوري مهذّب:

– نحن في دولة النظام والقانون! يمنع الذهاب العشوائي من صالة إلى صالة لا يسمح القانون بدخولها.

– حاجتي ماسّةٌ عجلى يا معالي الوزير، وحمّامات الدرجة الثانية لن تفرغ قبل وقتٍ طويل، أجبتُ معوّلا على ضوءه الاخضر.

– ينبغي التقيد باللوائح الدستورية واحترام المؤسسات المدنية، ردّ بنفس الابتسامة المهندمة والكياسة الصالونية.

– ياسعادة القائد الكبير، أنا مريض جدا. لم يتبق من حياتي غير ساعات هوينة! لسؤ قدري لم أعد امتلك القلب الكفؤ على التريّث والانتظار أو الصراع من أجل مقعدٍ عاجلٍ في دورة مياه.

بلع ريقه بصوتٍ مسموع. ردّ وقد تبرعمت في نظراته إرهاصات تكشيرة رمادية قارصة:

– أكرر للمرة الاخيرة: لا يسمح بأي حالٍ من الاحوال إختراق الارشادات الحضارية أو تجاوز الشرعية المؤسساتية.

– إفهمْني أطال الله عمرك! قلبي معلّق داخل صدري بشعرة رهيفة. يمكنه أن يسقط في جوف معدتي خلال ثوان كما قال لي الاطباء. ربما الآن بين يديك، قبل أن تقوم من مقامك أو قبل أن تغمض عينيك... صدّقْني يا سماحة الوزير: دمّي بين رجولك!

أذِنَ لي إثر وابل توسلاتٍ إضافيه من العيار الثقيل بالدخول إلى صالة الدرجة الاولى بعد أن صدّق إلى هذا الحدّ أو ذاك تاكيدي الذي لا يخلو من المبالغة بأنني على شفى شعرة من الإنطفاء. في كل الاحوال، يبدو أنه أيقن قطعا انني لن أحيا طويلا لأثرثر معكم، كما أفعله الآن بطيبة خاطر، عن متحف العجائب الذي سأراه في الصالة الاولى من هذه الطائرة التي تترنّح في كفّ عفريت.

هرعتُ نحو دورة المياه. مشغولةً كانت وإن لم يكن قبالة بابها أحد. توقّفت أنتظر بمحاذاتها، أجول بنظري في كل أرجاء صالة هذه الطائرة التي سرعان مابدت لي موطنا حقيقيا لفيلمٍ غرائبي فريد.

خلت الصالة من المقاعد. جدرانها الاربعة صارت متكآت لأرائك سلطانية يتربع فوقها اربعون شيخ قبيلة ذوي أشكال جليلة مهيبة، يرمق كلٌّ منهم الآخر بنظرات لا تخلو من الريبة والحذر. حولهم حرسٌ مدججون بالسلاح، وخدمٌ ينظفون بقايا موائد كانت عامرة باكتاف اثوارٍ وجواميس، تحيطها صحون «الحلبة»، و«بنت الصحن»، و«الشفوت» المتخم باللبن والعسل والسمن الجبلي، وأطباق «صوانين» السمك العدني الراقي، ومطايب مرق الضريع البلدي الشهي المُثْمِل. خدمٌ آخرون يفرشون رُزم قاتٍ من نوعٍ ثمينٍ باهظ لا يمسّه إلا اللامطهرون، ويهيئون أرجيلات يمنية تستحق أن تنعت بتحفٍ فنية أصيلة.

دخان تبغٍ معسّلٍ عبق يتكثّف في فضاء الصالة ويتغلغل في نخاعها.

إستحوذ انتباهي أحد الشيوخ الفاضلين وهو يحاول عبثا سحب الدخان من إرجيلته التي كانت شبه مسدودة. ظللتُ اراقبه لاهيا وهو يشدّ على مصّاصها، يستمدُّ جلّ أنفاسه

من أسفل سافليها، وكأنه آلى إلا أن يخرج أثقالها... دون جدوى. ينفثُ زوبعةً من سراب، ثمّ يعاود مجددا جذب أنفاسه بعمق بين استراحتين من الشتائم التي يكيلها لِ« مُعمِّر » ارجيلته، أي مُوقِدِها، رغم جودة حجرها وكركرة مائها وتوهّج جمرها وطراوة تبغها البحريني الفاخر.

يبدو أن عزيمة سُمويِّه لا تثبطها العراقيل. إستلّ من مشدّة قاته الملتصقة بخاصرته عشبا طويلا ليّنا قطف أصغر وأندى أوراقه، ثمّ غرسها في مدخل خدّه الأيمن. تنحنح. جحظت عيناه، زفر كلّ ما في شعيبات رئتيه الهائلتين حتّى تلامست أسناخها الهوائية، حشر مصاص الارجيلة في فمه الذي ماطفق خدّه الأيمن يتكوّر دون توقف... ثم شفط بنفَسٍ طويل جامح وكأنه مسكون بعنفوان ثورٍ نصف مطعون.

فجأة بدأ يسعل ويبصق في كل الاتجاهات وكأنه اجتذب من امعاء الارجيلة شيئا التصق في بوابة قصبته الهوائية.

معصم باب الحمّام المغلق بدأ يستدير أخيرا. قبل أن ألِجَهُ مسعورا، شعرت بلكزة مؤلمة من يدين تدفعاني دفعة قوية. تعثّرتُ كما لو نطحني قرن ثورٍ مجنون أو شيخٍ هائج. وجدت نفسي مرميا قرب باب قائد الطائرة.

دخل جلالته المرحاض. حشر اصبعه في جوف فمه امام المرآة لينزع من بلعومه ذلك الجسم الطفيلي الذي سدّ مسار الدخان. عاود أوبرا البصق والسعال ولعن معمِّر النارجيلة، قبل أن يطرش صرصورا صغيرا يبدو أنه تسلل خطأ من الفوهة السفلى التي تُغرس فيها نهاية مصّاص الارجيلة بعد استبدال مائها قبل أن ينحشر في خرطوم الفوهة، ويتحجّر ثمّة في مضيق الخرطوم.

كان باب قائد الطائرة نصف مفتوح عندما رمتني لكزة جلالة الشيخ عند مشارفه. أردتُ حينها أن استغلّ فرصة تواجدي ثمّة لأرشق عن قرب فيلق الساعات والاجهزة الإلكترونية التي لم اشاهدها قبلُ وهي ترتصّ أمام مقعدَي الطيار ومساعده، إلا في أفلام التلفزيون.

لم تكن غرفةُ القيادة ديوانَ الحكمة أو قُدسَ الوقار الذي كنتُ أتوقّعه. لم يكن منظرها هو الآخر مثيرا للسكينة والاطمئنان. صخبٌ وصراخ. هرجٌ ومرج. عددٌ من حرس أحد المشائخ يرقصون رافعين جنابيهم في وسط الغرفة. الطيار ومساعده يدخلان في حديثٍ مضطرب وشتم وعراك... نهضتُ، شهّدتُ وكبّرتُ وقد أيقنتُ أن ثمن السكتة القلبية في هذه الطائرة لا يكلّف أكثر من ربع ريال.

خلتْ دورة المياه أخيرا. هرعتُ نحوها مبعدا نظري عن حوضٍ تتوسطه قشدة لزجة من بصاقٍ معجونٍ بالقات تعثّر في لجّه صرصورٌ فقدَ بعض أطرافه بين رقائق الكتلة الرخوة التي يلوكها سمو الشيخ، إلا أنه ما زال حيّا يتململ.

حينها كادت رغبتي في ولوج الحمّام تُقمع كليّة لولا حاجتي البيولوجية لتقيؤ أشياء كثيرة. أولها منظر ذلك الاستاذ الأنيق الذي يقف في بوابة الصالة الاولى. تذكّرت انه قضّى حياته واجهةً مدنيّة لِنظامٍ سياسي قَبَلِي تناطحت قياداته الأمِّية وتآكلت في حروب قبلية مروعة وهو يغنّي للملأ: «إننا نبني سلطة العمّال والفلاحين المؤسسة على مبادئ الاممية البروليتارية». هاهو اليوم نفسه يرتّل: «إننا نبني سلطة حضارية

عمادها القانون والمؤسسات المدنية » قبل أن يكيل شتمه بسخاء ودون خجل لما صار يسمّيه بازدراء: « عصر الشمولية »... يابوي أنا يابوي. يابوي!

إرتميتُ أخيرا فوق مقعد ذلك الملاذ المنتظر الذي قصفتني في طريق بلوغه مواعظ معالي الوزير ولكمات جلالة الشيخ. شعرتُ حقا براحة عظيمة بعد هذه المسيرة النضالية التي أفضت بي إلى هذا الفردوس الذي لم أحظ بهِ دون استحقاق أو جدارة.

« إنها ليست طائرة، إنها ورشة فجائع » عبارةٌ قصّت شريط تأملاتي الهادئة فوق أريكة المرحاض. أو بالاحرى، تجلياتي النورانية. أنا الذي ما تفجّرت بنات أفكاري قط (إذا ما جاز لي أن أسميها بنات أفكار) إلا في صومعات المراحيض.

عبارةٌ أخرى سمعتها ذات يوم من ثغر مدرّس اللغة الانجليزية في المدرسة الثانوية، ثمّ انمحت من بالي منذ أمد قبل أن تنتفض بغتة كمارد استلب كلّ عقلي وتفكيري:

Waiting for death is passivity. Commiting suiside is action!

شظايا عبارات أخرى انبلجت من عتمة الذاكرة بلغةٍ لم تتكوّن كلماتها بعد. لغةٍ جنينية تترنّحُ في أزقّتها شفراتٌ هلاميّة، رموزٌ عميقة، نبرات معقّدة. تتداخلُ في معانيها أحلامُ طفولة، ذكرياتُ حياةٍ استعمرتها الانكسارات، فحيحُ خوفٍ أزرق، هلعٌ من مستقبلٍ نغلت في مخّ عظامه الجراثيم...

باغتتني أسئلةٌ هبّت من كل حدبٍ وصوب لِتلعلعَ بعنفٍ في مركز جمجمتي:

لماذا تُهدرُ طاقاتنا، لماذا نحترقُ عبثا في رمضاء الصحراء؟

ماذا يمكنُ أن تُهديه الزوابع لقلبٍ ضعيفٍ ذابل؟

لماذا قُدِّرَ لنا أن نحيا جرذانا منسوخة في حديقة حيوانات هذا الكوكب الفسيح؟

ما هي أصغر مسافةٍ لاضرامِ عشقٍ مجنونٍ في فؤاد المعشوقة؟

لماذا تعود العصافير لأعشاشها قبل الموت؟

كم يجب أن نطوف حول كعبة الاضحيات والألم لننال تذكرة الدخول لفردوس الحرية؟

ما هي أدسم القرابين التي تبتهج لها آلهة الحرية؟

.....

عُدتُ من شرودي. أخرستُ مواييل أسئلتي. أغلقتُ محراب تأملاتي. إجتاحتني رغبةٌ عارمة في أن أغتسل، في أن أعوم بهدوء في بحرٍ دافئ، في أن أدعو سعاد لتناول عشاءٍ رومانسيٍّ على شرفةٍ تغمرها أضواء القمر، في علياء مطعمٍ بحريٍّ فاخر.

إستباحني هاجس العوم في غمرة الماء، في لجّ البحار البعيدة. العَومُ أو الجنون: خياران لا ثالث لهما. هاأنا أسقط في تيه الجنون. كلّا. هاأنا أُخلَق من جديد. أودّ أن أعوم، أن أحيا مرّةً أخرى. أريد أن أعيش دهرا من العشق والقُبَل...

« كي تحيا من جديد، يلزم أن تموت أولا »: نظرية أخرى، نافلة أكيدة، ذات بداهة صارخة، لا أتذكّر أين قرأتها من قبل، في مجلّد شروحات كتابٍ سماويٍّ مقدّس، أو في كتاب حكيمٍ هنديٍّ عميق، أو من لسان مهندسٍ معماريٍّ متخصّصٍ بتهديم العمارات الخارية قبل اعادة تشييدها.

« كي تحيا من جديد، يلزم أن تموت أولا ».

« كي تحيا من جديد، يلزم أن تموت أولا ».

.....

غادرتُ برجي العاجي الاثير رائق الذهن، ألمعي الرؤية، مشتد العزيمة. عبرتُ باب الصالة حيث ما زال سيادة الوزير يتحدث عن عصر المؤسسات المدنية ومناهج الولوج العلمي للألفيّات القادمة...

حينها «بانتْ سعادُ» قرب مدخل غرفة المرطبات في ذيل الطائرة. إتجهتُ نحوها لأقول لها شيئا ما.

– آنستي العزيزة! هناك لحظات في الحياة لا يمتلك فيها المرء وقتا كافيا للاسهاب في شرح أحاسيسه ونواياه. لحظات يحتاج فيها الى تبادل ثقة فورية كاملة مع إنسان آخر يحبُّه بقوة!...

أفرغتُ ذلك دفعةً واحدة. كانت الكلمات تغادرني آلياً، دون تلعثم، دون رقابة، دون حدود. أكثر ما أذهلني هو أن نظرات سعاد كانت ناعسةً مُبارِكة تنتظر بتعاطف ما سأقوله بعد ذلك.

– ...لن أطيل عليكِ مقدمتي. إخبريني!...

كدتُ أتراجع عمّا سأقوله لولا ابتسامتها المفاجئة التي أوحت لي أنها قرأت ما سألفظُه كلمةً كلمة.

– ...هل هناك مظلة جوية في هذه الطائرة؟ لا تخافي، تعلّمتُ استخدام المظلات خلال سنوات الخدمة العسكرية. صدِّقيني، عليك أن تقفزي معي في نفس المظلة كيما نغادر سويا هذه الطائرة قبل فوات الاوان.

مرّت الاحداث بعد ذلك بسرعة مذهلة لم أكن أتصورها ابدا. توجّهت سعاد (وكأنها تنتظر هذه اللحظة منذ قرون) نحو رفٍّ قرب غرفة المرطبات. أخرجت حقيبةً تحوي مظلّةً ململمة بدقة، مدّتها نحوي.

صعقني هدؤها وسرعة تجاوبها إن لم أقل انتظارها الصامت لهذه اللحظة التكوّنية التي طال غيابها. زادني ذلك ثقةً وعدم تردد. أنا الذي أيقنتُ طيلة حياتي أن للمرأة حدسا وجوديا وبصيرة غيبية تطنُّ فيها ذبذبات لا يمكن أن يلتقطها من لم يهبه الله ملكة تكوّر البطن والإنجاب.

لم تمر بعد ذلك إلا لحظات حتى كنا نحلّق معا في منتصف الطريق الهوائي بين سواحل سيناء وجسد طائرة تحوّل فجأة إلى كرةٍ من لَهَبْ. معصرةٍ ارجوانية هائلة تتسرب منها، في منظرٍ بديع ومؤلم في نفس الآن، حقائب متناثرة وأحزمة مقاعد، نظارات وعلب سجائر، أنقاض أثوار وجواميس، مناديل كلينكس وعلب مرطبات، قشر موز وأعشاب قات، ارجيلات يمنية أصيلة، مطايب مرقٍ بلديٍّ شهيٍّ مُثمِل، جنبيات وكلاشنكوفات، ربطات عنق فراشيه وعمامات أئمّة، شراشف سوداء وأكياس بلاستيك مشحونة بالطرش، حوض مغسلٍ يرتجف في وسطه صرصور معوَّق مسكين، فَقَدَ بعض اعضاء جسده وهو في مقتبل العمر، يشكو من فوضى هذه الرحلة، يشعر بالنحس والذعر، يشعر بالبرد، يشعر بالقرف، يشعر بفقدان الجاذبية، يشعر بانعدام الإطمئنان...

في الفلك العالي حيث أحلق مع سعاد نسمات عليلة تتسلّلُ من حدائق الملكوت الأعلى، وأصداء أغانٍ آتية من مُدُنٍ ترقص خارج المدارات.

فوق رأسينا شمسٌ لا تكسف، تكتسحُ سماءً شديدةَ الزرقة تبدو فيها الطائرة الملتهبة شهاباً مارقاً في معمعان القيلولة. تحت أقدامنا سواحل مدينة ذَهَبْ في أسفل سيناء. يحاذينا خليج العقَبة وهو يتوّج مع خليج السويس علياء البحر الاحمر الذي يترامى أسفلنا كثعبانٍ أسطوريٍّ أزرق يتفرّع من صدرهِ رأسان متقابلان. على يميننا في الجهة الاخرى من خليج العقبة، قرب سواحل السعودية، شريط جبال تبوك الجرانيتية الخلابة التي لا تبعد عنّا إلا بضعة كيلومترات. على يسارنا يلوحُ جبل طور سينين يعلوه في القمة دير سانت كاترين، ثمّة حيث صعد سيدنا موسى لرؤية قبسٍ ساطعٍ من ظلِّ الحضرة الإلهية، وحيث تسلّق فرانسوا ميتران لإمتحان مقدرته الفيزيائية على بداية فترة رئاسية جديدة.

خلفنا، بعيدا في الخلف، تُمطرُ سماء الحسرات ويورقُ لَيلُ القبائل.

بين أحضاني سعاد، اخترق معها رغوة السحاب الرقيقة وندى الغُميمات الطرية. أخشى أن تفلت من بين يداي. أحيطها بذراعي بحنو وحنان ولذة لا توصف. أضمّها نحوي كي تتدفأ بي، كي أتدفأ بها، كي تكون أقرب إلى قلبي من حبل الوريد...

هاهي تُحدّثني بحبورٍ ودهشة عن كلّ ما نراه وما سنراه: أرخبيل شُعَب سيناء المرجانية الذي يتسمّر المرء أمام روعة جمالها وتنوعها، أسماكها الملونة الساحرة، رمال سواحلها الصافية البيضاء، مياهها الكريستالية الخالية من الامواج، غسقها الملائكي الزاخر بالنجوم الناصعة والشهب الراقصة... وجهي يلامس كتفيها، يغتسل بانفاسها، يتنفس بدفقات صوتها العذب الناعم، يناغم تماوج نهديها الوثيرين...

ببطءٍ لذيذ وسعادة غامرة مازلنا ننتعلُ هذا الفضاء المقدّس الذي تكتضُّ فيه مقصورات الحور العين ومنتزهات الملائكة، نتمرّغُ في كثبانه العالية، نرقصُ في قاعات جليده الشاسعة، مجبولين على التوحّد، مُدانين بالاندماج أو الموت، محكومٌ علينا بأن نتداخل معا بوحدانية كي نتجنّب السقوط والتهشّم...

نحاول بشراسة أن نمطمط قدر ما نستطيع رحلة العمر هذه، لنمدّ إلى مالانهاية هذه الدقائق الدهرية التي نسبح فيها فوق كوكب الارض وهو يسيل دافقا تحت أقدامنا، لا تفصلنا أكبر من مسافة همساتٍ وقبلة.

نحاول بشراسة أن نهيم مندمجَين إلى الأبد خارج فيزياء المسافة والزمن، بعيدا عن مضيقات منحنياتها الحلزونية وفجوات دالّاتها المقعّرة، شريكَين متّحدَين في تسكّعنا، منسجمَين متكاملَين كجذرين تربيعيّين لنفس المعادلة.

نحاول بشراسة أن نحيا بتباطؤ واسترخاء لحظة الفَرَج التي تمتد بين نيران الطائرة المتفجرة ومقبرة الأرض الصمّاء. لحظة الفَرَج التي تفصلنا – كما تقول بسملة رواية «زهرة البن» – عن مشنقتين!

البتراء – زبيد، أغسطس ١٩٩٩

همساتٌ حرّى من مملكة الموتى

الناس نيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا.
حديث شريف
فيا موت زُرْ إن الحياة ذميمةٌ...
أبوالعلاء المعرّي

١

«سايبه!»، كما يقولُ بفرنسيّةٍ طليقة جاري الذي عاش طويلا في جبوتي. «خلاص!»، كما تقولُ كلمة عربية أعشقها بامتياز. نعم، خلاص، مُتّ الآن! مُتّ حقا! مُتّ ولله الحمد! بلغتُ أجلي. تحقّقَ الحلم الذي انتظرته منذ أكثر من دهر. ها أنا الآن روحٌ أثيريّة تنسلخُ من جسدها، تغادرُ الارض مثل شعاع ضوء، مثل نظرة وداع.

ياللروعة! هاأنذا أرفرف. أجنحةٌ تنبثقُ من جوانب روحي، تنبتُ وتمتدّ فوق ضلوعي. كلّ أوصالي تتماوج في الفضاء بحبور ودهشة. أحلّق بحرية بعيدا عن عالمكم الطيني، بعيدا عن كلّ اجرام السماء، بعيدا عن المادة والزمن... أكاد لا أصدّق: لم أعد أعيش «على قيد الحياة» كتلةً جسدية هشّة تتلذذ بِقرْعِها مطارق حياتكم القاسية. (أتذكر الآن كم كنت أكره انذاكَ هذه العبارة المبرطمة: «علَى قيد الحياة»)... لا يهمّ كلّ ذلك الآن. جاء الخلاص. ما أحلى الحرية! ما أمتع الحرية! ما أعظم الحرية!... أريد ان أزقزق مثل عصافير الفجر. آه! عاد الى ذهني فجأة نغمٌ تليد نهض من أنقاض أعشاش المدرسة الابتدائية:

تزقزقُ الطيور فرحانةً بالنور
تقولُ في سرور ما أجمل الضياء!

هاأنذا ازغرد! لاتسمعني إلا ارواح الموتى التي غادرت الارض مثلي. لا تلتقط اغاريد روحي إلا آذان الاطياف الهائمة في هذا المدى الرحيب. يبدو اني ازغرد كالمجنون، ازغرد من كل جوارحي: واوووو! زغردةً سميكة المخرج، حلزونية الالتواء، مخروطية المنحنى، حادة النهاية. تبتسم جذلى امام اصدائها المتواترة ازواج الملائكة التي تتفسح في بطاح السماء.

«ردهة انتظار يوم البعث والنشور»: عبارة مكتوبة بأحرف من نور على لافتة هائلة البهاء، اتقدّم نحوها بشكل لاإرادي لا يخلو من لهفة حبٍّ استطلاعٍ جارف. عرفتُ من حشود بني آدم المتوجهة اليها انها ردهة شاسعة خارج الكون، بحجم الكون، يسمّيها بعضهم «مرفأ الارواح»، ويسمّيها آخرون «مملكة الموتى». بدت لي من بعيد مثل كوكب درّي يتضخّم ويمتدّ بلا توقف وكأنه كلما امتلأ بأسراب بشرية جديدة يجيب دوما، هو ايضا: «هل من مزيد؟» ثمّ بدت لي وانا اقترب منها اشبه بغوّاصة فضائية جدرانها من سبائك اللؤلؤ، ونوافذها من صفائح الكريستال، تسيل في أرجائها جدائل من نورٍ بنفسجيٍّ ناعم، وتتوّج قمّتها هالةٌ تاجيّة من ضوء فضّي كثيف.

ماإن ولجتُ الغواصة ورأيت أول ابن آدم يتسكّع فيها وهو يحك شعر رأسه نصف نائم حتى سألت: «أيان يوم القيامة؟» ردّ متثائبا: «بعد قليل. بعد دقيقة واحدة!» بعد

استراحة دقيقة عابرة تنساب بين حياة الدنيا وحياة الآخرة.دقيقة بحجم الأبدية. (الزمن هنا، خارج الكون، يشبه زمن ماقبل الانفجار الكوني الكبير. يشبه اللازمن، أو زمن اللاوجود إذا احببتم...)

واووووو! هاأنا في قلب الغواصة. هاأنا ميتٌ دون رجعة وللّه الحمد. كم انتظرت طويلا هذه اللحظة عندما كنت في معمورتكم! انتظرتها نصف حيٍّ نصف ميّت. كنت كلّما سئلت: «كيف الحال؟» أجبتُ مثل معظمكم: «على قيد الحياة! أعيش بانتظار الموت. سيأتي قريبا إن شاء الله...» تمنّيته كلّ صباح. صار حلمي الوحيد بعد أن سلبوني كل جعبة احلامي. إنتظرته بفارغ الصبر، جائعا، دائخا، معطوبا، مهزوما، منهوبا... لا يهم كل ذلك الآن! فقد نجحتُ! تحقق الحلم كله! هاأنا ميتٌ «بحقٍّ حقيقي»، أفرك يداي فرحا وقد أيقنت دون مثقال ذرّة من شك انني أعيش هنا في مملكة الاموات، أقطن في أزقّة مرفأ الارواح، أطير كعصفور بين امواج كل الاجيال التي سكنت الارض منذ ليلة الزمن الاولى التي طُرد فيها أبونا آدم من الجنة وحتى يومنا هذا...

يالها من لحظة لا تساويها لحظة! سأعرف قريبا اجابات كل الاسئلة التي «دوّخت» بي منذ صباي. سأعرف: من كتب «الف ليلة وليلة»؟ هل عاشت الملكة بلقيس يوما؟ اين تسكن «جنيّة العقبة» و«طاهش الحوبان»؟ هل صدق قول جدّتي بان هدهد سليمان كان يتقن نظم الشعر الموزون المقفّى؟... نعم، سأعرف كل الاسرار الخفية التي اضناني جهلها. سأعرف: لماذا يتخلف العالم العربي يوما بعد يوم؟ لماذا تأخّرت مصر وتقدّمت اليابان التي كانت اقلّ تطورا وحظا قبل اقلّ من قرنين؟ ماذا يدور في ذهن أصوليّ متطرف ينتظر تباشير الفجر «ليحزّ عنق رضيع أو يبقر بطن حبلى»؟ لماذا اصبحت اليمن التي تملك ثروات طبيعية ونفطية وسياحية وبشرية كبيرة من أفقر دول العالم؟... سأقرأ محضر اجتماع السقيفة، والبنود السرية لكل الاجتماعات التي اسست الحضارات البشرية. سأعرف الصيغ الرياضية لقوانين سقوط الامبراطوريات منذ الازل والى الابد، مرورا بالامبراطورية السوفيتية التي عاصرتُ سقوطها ...نعم، سأُعرّي كل الالغاز المكتومة التي طالما نهشتني الرغبة لفضّ بكارتها. سأقرأ «المعلقات السبع» لهدهد سليمان إذا صحّت نظرية جدّتي. سأطلب من نِظام المُلْك وابراهيم الحمدي وعبدالفتاح اسماعيل ان يحكوا لي تفاصيل موتهم. سأعترف لناقدٍ أدبي حكيم أنني منذ أن قرأت في صباي أبيات أدونيس:

– أين أنتَ؟ أرني ماذا كتبتَ!
لم اجبها، لم اكن اعرفُ كلمةْ
فأنا مزّقتُ أوراقي لأني
لم أجد تحت شفاه الحبرِ نجمةْ.
– أين أنتَ؟ أرني ماذا كَتبتَ!
لم اجبها
كانت الليلةُ كوخاً بدويا
والمصابيح قبيلة
وأنا شمسٌ نحيلة
تحتها، غيّرت الارضُ رُباها
والتقى التائهُ بالدربِ الطويلة

صرتُ أسيرَ تلك الابيات. أسمع اصداءها تصدح كل يوم في حدائقي السرية وكأنها النشيد

الوطني لبلادٍ نائيةٍ في اعماق روحي. سأطلب من الناقد المحنّك أن يفسّر لي لماذا أسمع ليلَ نهار أنغام هذه الابيات تتردد بشكلٍ لاواعٍ في أروقة روحي وأقبيتها الغائرة كما لو كانت نسمات بردٍ وسلام، أو فاتحة صلاةٍ حميمة...

٢

أشعر أن اجنحتي تخفق بشكل طبيعي، إراديّ جدا هذه المرة، هاربة من صدر الغواصة باتجاه اطرافها، ثمّة، حيث تشمخ جدرانها الكريستالية الهائلة التي تتّسع طولا وعرضا وتتباعد دون توقف كبالونة تنتفخ باستمرار. نعم، اشعر كما لو أني لم اعُد اطيق البقاء طويلا في مركز الغواصة. شئٌ ما مثل هاجس الاختناق اعتراني هنالك. حتما، لا يطيب لي المقام إلا في اطراف النهايات. يبدو انني سأظل دوما ابن الضواحي، في الارض وفي السماء.

حاولتُ ان أرى شيئا ما خلف جدران نهايات الغواصة، حاولتُ ان ابصر بصيص ضوءٍ ما يأتي من وراء المنتهى. عبثا. مليارات الشاشات الصغيرة تملأ جدران المنتهى ولا تسمح بتجاوزه. لن أرى باب جنّات عَدْن، لن أرى حتى باب السعير، ولا أشواك شجرة الزقّوم. لن أرى سدرة المنتهى التي طالما تخيّلتها «صفصافةً باكية»، باسقة عملاقة فوق رابيةٍ من ورود الفردوس الأعلى، ترفل نضارةً وسط مشكاة من الضوء الإلهي المقدس. لن أرى شيئاً من كل ذلك. أسرار لن تتعرّى قبل موعدها الربّاني. لا شئ امامي، في هذه الدقيقة المفروشة كالأبدية، غير هذا السيل الصامت من الشاشات الصمّاء...

عفوا ليست صمّاء كما ظننت. ليست صماء قط. هي ماأردتَ إلا ان تكون صمّاء. يكفي ان يخطر ببالك شئ ما، باللغة التي تحبّذها، بالصيغة التي تهواها... لتجد نفسك غارقا في نهر من الصور، ذائبا في فيلم ينقل لك كل ما تصبو اليه! كم تبدو هذه الشاشات الإلكترونية أشبه بشرفات تطلّ على حياة الدنيا. أو بالأحرى كم تبدو حياة الدنيا أشبه بفيلمٍ يسيل دون توقّف في أديم هذه الشاشات...

لم أهمس أمام شاشة بالرغبة في رؤية دلال الحور العين كما يفعله القادمون الجدد وهم يتعطّشون لمقبّلات مآدب الجنة. لعلّي كنت اجدرهم بمعاقرتهن انا الذي لم اسرق لِبنة (١) (نهب آخرون ملايين اللِبنات...)، لم أظمئ انسانا (أظمأ آخرون ملايين البشر في الحروب القبلية المتتالية...)، لم اسجن او اقتل نملة... صدّقوني! لم افكّر برؤية حورية واحدة. لم يسل لعابي حلما بـ«كواعب اترابا، وكأسا دهاقا...» نحو الارض هربتْ كل افكاري ورغباتي، ثمّة، حيث تسكن في احدى شقق خورمكسر المواجهة للبحر، معبودتي الوحيدة: لمياء.

«أريد ان اقترب من لمياء»: همستُ في سريرتي امام اول شاشة تحاذيني. ياللعجب! لم أكد أغادر الارض التي طالما امعنتُ في شتمها، وصرختُ تأففي منها ومقتي لها... حتّى لدغني الشوق لها على التو. هاهي لمياء، شريكة حياتي المسكينة التي طالما اتعبتُها كلما اتعبتني الحياة، أعْنِي: دوما، هاهي معشوقتي منذ الازل ترقد امامي ممتدّة على السرير بكل نعومة جسدها وطراوة نهديها، هنا في غرفتنا الصغيرة، بفستانها الليلي الرهيف المعطّر. أشمّه هنا في الغواصة، يعبر مسامات الشاشة، يخترق خياشيمي، يفجّر دماغي...

أقترب منها، يضمخني عبق هواء مسْكرٍ يفوح من جانبيها. يفوح من شعرها الخمري. أحاول لمس اطرافها. عبثا. أصرخ. لا تسمعني. أصرخ دون صوت. أصرخ عاليا. لا تسمعني. لا تشعر بي. لست اكثر من حفنة هواءٍ بلا لونٍ ولا رائحة يمرّ امامها. أحاول إثارة انتباهها. دون فائدة. لست أكثر من عدم. لست أكثر من لاشئ. أنَستْني؟ لماذا تتعطّر وتتبخّر هكذا بينما لم أعد حيّا؟...

إشتقتُ لها كما لم أشتق لها من قبل! تمنيت أن أمتدّ قربها بسرية حتى مطلع الفجر، كيما استنشقها كثيرا، وأحدّق فيها طويلا... أفتح بعدها ستائر نافذتنا الزجاجية المواجهة للبحر لأراها تغتسل بأشعة شمس ساحل أبين الممتد أسفل غرفتنا الزوجية... ثمّ أحمل لها فطائر «المطبقية» الدافئة، وخمير «المقصقص» المسكّر باعتدال متقن، وكوبا من الشاي بالحليب المعطّر بالجوز والهيل العبقين... أضغاث أحلام! لن أتمتع باعداد فطورها المفضّل وحمله إليها لِأراها تتناوله فوق السرير بكسلها اللذيذ الناعم... ياإلهي بدأ الشوق لحياتكم الارضية ومناسك سعاداتها الصغيرة يقتلني حقا. أريد أن أعود. أريد العودة. أريد العودة. أريد العودة...

تنهّدتْ لمياء. تحرّكتْ قليلا، ثمّ استدارت لتضطجع على جنبها ولتبعث لي دفقة جديدة من رائحة جسدها. ارتبكتُ بقوّة. حاولت مجددا لمسها باطراف الاصابع. دون جدوى. كدتُ انفجر بكاء وحنينا. احتلّتني حينها رغبات ارضية بحتة. اشواق جسدية حرّى. أسرتني شهوات جمرية لاحتضانها، للامتزاج بها...

كيما انسى بعض شجوني، قرّرت أن أواصل إلياذتي سائحا متجولا في أصقاع الغواصة. جذبتْني فكرة صغيرة في أن أبدأ تسكّعي بالبحث عن مخلوقات تذكّرني بسلالة لمياء. قرّرتُ، كي اقترب من قومٍ من تلك الطينة، التوجّهَ إلى مساحة إقليمية واسعة في أحد الاطراف النائية في ضواحي الغواصة تسمّى بِـ«دغْل أبو يمن». ويحي! مازالت ميكروبات البادية التي تصول وتجول داخل جيناتي الارضية تواصل تأثيرها على دماغي من داخل اللحد. ويلي! كيف لن يجرفني تيار الرغبة الكاسحة في الذهاب الى الدغل، وأنا الذي تطوّقتْ تلابيب دماغي بِـ«أهواك» حبال الماضي، وانزلقت كل عواطفي في شرك القبيلة.

لم اجد صعوبة في معرفة الدغل من بعيد. في ركن يواجه مدخله يجلس ابراهيم الحمدي وعبدالفتاح اسماعيل حول منضدة صغيرة يرتشفان فنجان قهوة «مزغولة» ويتبادلان حديثا لا يخلو من الفكاهة التي تشبه فكاهة الخيبات الحميمة. لم اتجرأ بالاقتراب منهما وسؤالهما حول تفاصيل موتهما. ليس لأني لم اعد اتوق لذلك. كلا، بل لأني شعرت بنوعٍ من الخجل امامهما: ألم أنذر عندما كنت حيا ان اضع بجانب قبر كلٍّ منهما باقة ورود ب ٣٠٠ ريال؟ لم افعل ذلك لأني لا اعرف الى الآن ان كان لهما قبران. أو بالاحرى لا ادري ان كانت جثتاهما في توابيتهما حقا...

ماإن دخلت الدغل حتى شعرت بالفوضى والصخب والشغب. سمعت عمر الجاوي الذي كان يتجول في وسطه (والذي وضعتُ امام قبره في الدنيا كثيرا من باقات الورود) يقول: «الذي لم يحلّ مشاكله في الدنيا، لن يحلّها في الآخرة...» فهمتُ من عبارته انني سأظل أعيش روحيا في الارض وان كنت اسكن فيزيائيا في السماء.

رأيت ثلاثة من شباب شارعنا الارضي. اتذكر دون صعوبة انهم كانو «يتركّنون»

دوما في احدى بؤرات اطراف الشارع، يعلّقون بسخرية على كل ما يرونه وما لايرونه. هاهم هنا ايضا فوق ربوة مواجهة لمدخل الدغل. إندمجتُ بهم كما كنت افعل معظم وقتي في حياة الدنيا. لم نلبث ان واصلنا «احاديث الاركان» ونحن نراقب الارواح الجديدة التي تصل طازجة الى مدخل الدغل، وكأننا نواصل الحديث الذي لكناه البارحة للمرة المليون، في ركن شارعنا الارضي على بعد مليون سنة ضوئية من هذه الربوة القصية الضائعة في ضواحي الغواصة.

بدأتْ أول مداخلة من أحد زملائي الثلاثة عندما انضمّ إلى موكب الدغل رجلٌ ثخين «مُكرْفتْ» يبتسم في الآخرة نفس الابتسامة الغبية التي كان يبتسمها في الدنيا. قال صاحبي مُعرّفا به:

– ها هو الرفيق «س». بدأ حياته السياسية ثوريّا يهتف في «المسيرات الشعبية»:

نجران جيزان اليمنيه لن نتركها للرجعيه
سوف تعودْ، سوف تعودْ بحربِ التحريرِ الشعبيه

وأنهاها شحاتا يهتف «يارب، ياكريم!» في عقر دار الرجعية...

ثمّ وصل الدغل عقيدٌ متجهّم النظرات، محمرّ العينين، عليه سيماء بشاشة أبواب المعتقلات. إذا بأحد زملائي يقول معرّفا به:

– هاهو الشيخ «ش». نهب أكثر من مليون لِبنة مؤخرا. ظل يستلم راتبه الشهري من «الرجعية» قبل وبعد وفاة الإمام. يبدو أنه يبحث عن «حارة الرجعية» لمواصلة استلام راتبه الشهري...

وصل بعدها حضريّ أنيق كان يثير اشمئزازنا كثيرا في الارض. إلتفتَ يمينا ويسارا، لمعتْ عيناه وافترت ابتسامته عن انتهازية دفينة لا تُكبح ضراوتها. إذا بثالثنا يقول:

– هاهو الاستاذ «ص» المعروف بهوسه في النشاط السياسي في قيادات الاحزاب الحاكمة فقط. نال منذ شهرين منصبا قياديا في الحزب الحاكم الجديد، وإذا به أكثر إماميّة من الإمام. يستطيع أن يتغيّر خلال خمس دقائق من ماركسي إلى لِبرالي إلى مَلَكي إلى جمهوري إلى يساري متطرف إلى يميني متطرف إلى مَلَكي–يساري–متطرف إلى ثوريّ–يميني–متطرف... أراهن انه سيسأل بعد ثوانٍ عن اسم الحزب الحاكم في هذه الادغال!

شعرتُ بنفس القرف والسأم الدنيويين. كنت أظن أنني ابتعدت نهائيا عن هذه الكوابيس الارضية، وإذا بها تلحق بي هنا، على بعد ملايين من السنين الضوئية. صدق عمر الجاوي في الدنيا والآخرة وهو يقول: «الذي لم يحلّ مشاكله في الدنيا، لن يحلّها في الآخرة...»

٣

غادرتُ دائرة اصدقائي الثلاثة فورا. إشتقتُ الى قدحٍ مثلّج خِتامه مِسك ينسيني كل الهموم. لا ادري متى سيهلّ موعد ذلك. بانتظاره تواضعتْ احلامي مستنجدةً بأمنية لا أجرؤ على البوح بها بصوت جهور: ربطة قات من النوع الفاخر. جِنّي!! لا توجد مجالس قات في الآخرة! تمنّيت ان أبعث بهذه البشارة للاستاذ أحمد جابر عفيف وحواريه من انصار «يمن بلا قات» لأفرحهم قليلا... هذّبتُ جموح احلامي وغلو امنياتي متذكرا ان قنوات

الاتصال باليمن كانت « معكومة » في الدنيا، فما بالك بها من هنا... من الآخرة.

توجّهتُ نحو اقرب شاشة مني. رجوتها ان تُبؤر « زومها » على مَبْرز القات (٢)، الذي ينعقد في منزل أحد أصدقائي في ركن شارعنا. إلتوت عدسة الشاشة هابطة نحو غرفةٍ تحت ارضية مغلقة لا تصلها إلا اضواء المصابيح البيضاء وخرير المكيفات الهوائية، نسميها لذلكَ: « الغوّاصة ». (يسمّيها بعضنا بين الحين والآخر « المقبرة » أو « الرحم ») . ما إن بدأتْ الشاشة نقلها المباشر لزخم منتدى القات داخل « الغواصة » حتّى اختلجت كل اوصال قلبي وتمنيت لو كنت هناك متكئا أو حتى مقرفصا هنيهات قلائل... كان نقلا حيا رائعا، وجدتُ فيه نفس الضحك والثرثرة اليومية، نفس الصمت النادر المفاجئ، نفس السخرية اللاهية، نفس الرائحة التي دغدغت كل اشواقي. نفس الاعضاء الدائمين، البسطاء الطيبين، الزائغين والدائخين، الصامتين والهائجين... انصهرتُ بهم وشرعت في الحديث معهم. عبثا... إنهم يرقصون في وأدٍ عميق يفصلني عنه زمنٌ وحياة ودنيا.

ياللهول! من أرى هنالك يعبر عتبة المبرز ليتكئ في نفس موضعه الدائم؟

رأيت وحيد مثنّى مرتوق، في نفس موضعه اليومي. رأيت نفسي كما لوكنت حيا! لم أمت إذا، كلّ ذلك كان حلما لا غير! يبدو ان اشتياقي الطويل للموت جعلني أهلوس كثيرا...

مستحيل ذلك. فالشاشة التي ألمسها هنا دليلٌ ساطع على مادّية موتي وتاريخيته. برهانٌ كامل على أني كائن حيّ يعيش بكل حواسه في ملكوت العالم الآخر. سألتها على التو أن تتوجه نحو « مقبرة الحاج عبد الحفّار » وتتجوّل في كل القبور لأرى مثواي الاخير بأم عينيّ وأحتفل أخيرا بموتي.

لم تتوان الشاشة العزيزة عن إقتحام المقبرة. هاكم قبري، أراه جليا. أقرأ عليه عبارةً كتبها أحد أصدقاء المبرز، الذي كان ينتظر الموت مثلي: « وحيد مثّنى مرتوق: أسعده الله! وافَتْه المنية قبلي ». رثيته لأنه لم يمتْ بعد. كان كلٌّ منّا يريد أن يفوز على الآخر في مسابقة « من سيموت الأول؟ »... كم هي فَضّةٌ ساديّةٌ ليلة الموت: تأتي صفعةً مباغتةً لمن لا يفكرّ فيها، وتتعرّى ببطءٍ قاتل لمن يشتهيها بجنون!

لم يكفِني كلّ ذلك. أردت أن أرى شريط جنازتي وكل وقائع دفني. أردت أن أرى كفَني لأقتنع بحقيقة موتي. رأيته، رأيته. لمحتُ في طرفه (مثل كلّ كفنٍ يحترم نفسه) ختم « مصنع الغزل والنسيج ». عرفته، لم يكن كفنا جديدا. كان إحدى ملايات غرفتنا الزوجية. إنفرجتْ بشائري، شهقتُ بشكل لا يصدّق، لأنها ملاية مضمّخة برائحة لمياء. ياللّذة! ستظلّ رائحتها فوق رفات عظامي حتّى يوم الحشر. لا أدري إن كان فقرنا المدقع أم رومانسيتها المفرطة هو ما أوحى لها بهذه الفكرة...

طلبتُ من الشاشة أن تعود قليلا إلى الخلف. شعرتُ هذه المرة باليقين المطلق وبأقصى الفرح وأنا أرى نفسي، ذات أصيلٍ شتويٍّ جميل، أحتضر أمام عينيّ. كنتُ أنيقا وسعيدا بما فيه الكفاية. « كانت الليلة كوخاً بدويا » كما أسْررتُ لُنفسي قبل أن تنغلق ستائر أحاسيسي إلى الأبد. كانت تلك آخر لحظةٍ استعيد فيها أبيات أدونيس قبل أن أغادر الحياة. أشعر بالخيبة الآن لأنني لم أحتضر على نغمات صوت فيروز الملائكي وهي تُغنّي أبيات جبران خليل جبران: « سكنَ الليل »، كما كنت أتمنّاه عندما كُنت حيّا. فهمتُ الآن، وأنا

أرى لمياء تضغط عبثا على أزرة المُسجّلة، أن الكهرباء كانت مقطوعة في كلّ منازل الحيّ. قلتُ لِنفسي: «أهمّ مافي الأمر أن لمياء لم تنس رغبتي الأخيرة». تحوّلت الخيبة إلى نوعٍ من الرضا والبهجة عندما شعرتُ أنه كان طبيعيا جدا أن لا أحتضر على أغنية فيروز التي اخترتها لِمُرافقة رحيلي. كان منطقيا جدا أن لا يتحقّق لي حلمٌ غادر يخون سيرتي في آخر لحظاتها. لِذلك كانت منظومة حياتي، أردتُ أم أبيت، أنموذجا من التناسق والانسجام، سيلا متواصلا فخورا من الخيبات النقية الكاملة.

«ساييه!»، هاأنا الآن، أمام ناظريّ، ألفظُ أنفاسي. واووووو!: صرختها مجددا بحلزونية ومخروطية تنبعث هائجة مدوية من الاعماق.

كتمتُ صرختي من باب الكياسة، أو التحلّي «بمكارم الأخلاق» كما يقولون. تنهّدتُ حسرةً عميقة. عميقة جدا. ثمّ اغمضت عينيّ عندما بدأتْ طقوس غسلي وتجهيزي على حشرجات تداخلات النواح والعويل. فتحتُ عينيّ حتّى لا تغيب عنهما لمياء طويلا. أسرَني جمال حزنها المأتمي وعظمة هيئتها في فستانها الطويل الاسود وأنا أراها تفتح الباب للمعزّين. لم يطفح بي الاسى والشعور بالذنب إلا عندما سمعت ابتهالاتها ونشيجها المكتوم. أجهشت بالبكاء حينها ولعنتُ كلّ لحظات الضعف الجبانة التي تمنّيت فيها موتي.

غادر موكب نعشي المنزل. تمتمتُ بخشوعٍ يواكب تراتيل الجنازة سورةَ الفاتحة وآيات الكرسي وما تيسّر من سورة يس التي نسيت معظم آياتها. حمدتُ الله كثيرا وصلّيت ركعتين على الميت الغائب وحيد مثنّى مرتوق وأنا أشاهد بقية مراسيم التشييع ولحظة الدفن. عكّر مزاجي النحيبُ الجماعي أثناء لحظة الدفن. لم أر له مبررا: ألم أكنْ مدفونا مكبوسا طيلة حياتي؟ حتّى ملابسي، ألم أشبّهها دائما بالأكفان؟ تعلّمتُ ذلك من جارتي المسكينة يوم رأيتها، ذات غسقٍ شكسبيريٍّ مفعمٍ بالشعور بالتمزّق وعزّة النفس، تلبسُ بنطلونا لأول مرّة في حياتها. كنت أحملُ حينها لعائلتها دلوَ ماءٍ غَرفْتُه من بئرٍ وحل حفرناه في وسط الشارع، عندما دمّرت الحرب مضخّات وآبار مياه مدينتي.(كان غسقا حالكا من عام ١٩٩٤، إمتلأتْ فيه أدغال اليمن الأرضية بذئاب ضارية تتقاتل بوحشية. أضاءتْ سماءها حمم المدافع والطائرات، ودوّت في آفاقها قهقهات أبطال الإظماء والتجويع، وحسرات صناديد القذائف الغادرة.) عندما سألتُ جارتي يومذاك عن سرّ لبسها للبنطلون، أجابتْ: «أخاف أن يجدوني مقتولة بفستانٍ قد يكشف عن ساقي. أفضّل أن أكون مستورةً محفوظةً ملمومةً في هذا الكفن...» لم أعد أرى جارتي بعد الحرب إلا ملفوفة بأطنان من الخمارات والشرابات والقُفّازات والشراشف والعبايات السوداء. أظنّ أنها تحْشرُ بنطلونها الآن في الدرك الأسفل من طاقم ملابسها الكفنية وكأنها تستعدّ للموت يوميا هي أيضا. أما أنا فقد حرصتُ منذ ذلك اليوم أن أكون مكسوا بكفنٍ جميل عندما يزورني قابض الأرواح. أجبرني ذلك أن أدمِن، رغم شحّة دخلي، الأناقةَ الرفيعة. وخدّرني، عليّ أن أعترف، بالاحساس بنوع من الفخر. وكم كنتُ فخورا جدا - والحق يقال - عندما رأيتُ جسدي يحتضر على الشاشة ببنطلون أسمرٍ فاتح متقن التفصيل والخياطة، وقانيلة قطنية بيضاء ناصعة، مكوّية بعناية، تزهو عليها في الصدر لوحة أرابيسك تعشقها لمياء كثيرا.

لم أحس بالأسف بعدئذ إلا عندما رمقتُ على الشاشة مأدبة الحداد: ذبحتْ زوجتي علبةً صغيرة من سمك التونه، ونظّفت دجاجة معلّبة وبعض سمك «الباغة»، لا غير. لا يهم

ذلك كثيرا في آخر التحليل لأن «الدجاجة ثورٌ في عصر الجُرعات(٣)» كما تقول إحدى حكم شارعنا الأرضي.

فتّشتُ، في الشاشة، جريدة «الأيام» التي تلت موتي. قفزت عيناي إلى صفحة الوفيات. مساحة صغيرة وقّع عليها كل اصدقاء المبرز ارتسمت فيها كلمات فخفاخة تتحدّث عن «جثماني الذي ووري الثرى» وتنعي بصيغ مكررة هرمة – لم أجد فيها أدنى كلمة حميمة مشخّصة – موت «وحيد مثنّى مرتوق الذي قضى نحبه»...

متّ إذا، متّ فعلا، متّ ولله الحمد. لماذا ساورني الشك من موتي؟ ربما صرت أهذي الآن من فرط حنيني لِثغرِ لمياء، وكوكب الأرض، ونسمات ساحل أبْيَن. فأنا ميتٌ، ميتٌ، ميت. لا تحرموني من هذه السعادة الوحيدة التي صرت امتلكها.

مفارقة غريبة! ازدواج مستحيل! كيف اتكئ حاليا واناقش مسطولا في مبرز ركن الشارع ولي قبرٌ نبشه الحاج عبد الحفار نفسه كما رأيته قبل لحظات على الشاشة؟ كيف يكون لي مناسِخٌ أرضيٌّ أراه أمامي فوق الشاشة وانا هنا مواطن رسمي يتمخطر في «مرفأ الارواح»؟

طلبتُ من الشاشة أن تُبرك «زومها» فوق صِنْوِي الأرضي الذي بدأ يتوقف عن النقاش على حين غرّة، يزيغ بصره بشكل مفاجئ، وكأنه يقرأ افكاري. يلوح على سيمائه توتّرٌ حاد ينذرُ بإعصار قريب. لعلّه يتساءل هو ايضا إن كان حيا أو ميتا. أراقبه بامعان وقلق: صاريلهثُ في متاهات عابثة، يتخبّط في دوّامات مرتبكة وكأنه أصيب بمسٍّ من الحيرة. صمتُ أصفر يفتك به، يمزّقه إربا إربا. من يعرفه أكثر منّي؟ من يعرف وحيد الدنيا أكثر من وحيد الآخرة؟ في أي طرقٍ كمداء هاهو يترنّح؟ ماذا يعتمل في باله المضطرم؟ أي زاوبع تصطخب في جمجمته؟... بدأتُ أقلق عليه كثيرا رغم ثقتي بأنه قطعا غير موجود. «إفتراضيٌ» في أفضل الاحوال. ميتٌ بكل بساطة، لأنني حيٌّ هنا. فكيف يُعقل أن يعيش انسانٌ في الدنيا وروحه في الآخرة؟ كيف يمكن أن يحيا هناك ووجودي هنا دليل دامغ على فنائه؟...

إتّجهتْ اصابعه بسرية نحو مقصّ الأظافرِ–مفتاحِ العُلَب الذي يستخدمه عادة لِفتح قارورة الكندادراي التي يضعها أمامه على منضدةٍ صغيرة فوق حصيف المبرز. بدأ يحرّكه بعصبية، يقلّبه بنرفزة لا تخفى على عينيّ اللتين تحاصرانه من كل مكان. تركه فوق فخذه قليلا، ثمّ تناوله من جديد وقلّبه بعصبية مرّة أخرى. أعاده فوق فخذه ثانية، ثمّ بدأ يعضّ شفته العليا كما يفعل عادة عندما يكون في ذروة اضطرابه. وضع إبرة المفتاح الصغيرة أسفل راحة يده. غرزها شيئا فشيئا كمن يحاولُ اقتلاع شوكةٍ ميكروسكوبية أو جُسيمٍ صغيرٍ غار في كفّه. واصل غرس الإبرة في أسفل كفّه. إربدّ، جحضت عيناه. شعرتُ بالقشعريرة وأنا اراه مسكونا بعفريتٍ من ذرّية «أم الصبيان» يقوده بنجاحٍ إلى مهلكة. لم افهم شيئاً مما يدور في كواليسه الباطنية. صرختُ ليكفّ عن تعذيب نفسه وإثارة النزيف في راحته. عبثا. لا يسمعني هو الآخر. خامرني إحساس بأنه يريد أن يستغيث بالألم، ويشعر بوخز حادٍّ في مركز دماغه... ليبرهن لي انني لم أمت بعد. مسكينٌ وحيد! لعلّه يبحث عن قطرة دمٍ تسيل بين اصابعه لتجيب على أسئلته وأسئلتي، لتشفي غليله وغليلي، لِيُثبت لي أنه حيٌّ يتألم وأنني دميةٌ سُبِكتْ من سراب.

رثيتُ لحاله من كلّ قلبي. رتّلتُ بحرارة دعوات بشفائه العاجل وخلاصه السريع. وصلتْ دعواتي اليه فورا مثل سيارة اسعاف أومثل «بابور الحريق»: لم تنبجس قطرة دمٍ واحدة من كفّه وقد غارت الإبرة فيها بعيدا بما فيه الكفاية! من منّا إذا «دميةٌ سُبكتْ من سراب» على حدّ تعبيره؟... حدّقتُ مجددا: كفّه ما زالت سليمة صافية. يالعظمة الخالق! الإبرة تحفرُ في خواء...

واووووو! أنا المنتصر. فزتُ وخسر الرهان.

متّ إذا، متّ فعلا، متّ ولله الحمد.

يالسذاجتي، كم كنت ابلها بالفعل وانا أكيل دعواتي بالشفاء العاجل لميّتٍ «ووري جثمانه التراب»! يالحماقتي! كم كنت غبيا مضحكا وانا اصرخ في وجه رجلٍ «قضى نحبه» كي يكف عن تعذيب نفسه!...

صوّبتِ الشاشة «زومها» نحو احد رفاق المبرز الذي لاحظ وحيد شارد الذهن يطوس بعيدا خارج منتدى القات. رمى له بغصن قاتٍ انتقاه بذوقٍ من شتلة قاته الشخصية، ليحيِّيه على طريقة جلسات القات، وليعيده في نفس الوقت الى حظيرة المبرز واحاديثها المتوازية والمتقاطعة معا.

إزدادت الاشياء تعقيدا في نظري عندما لم أر الغصن بين أصابع وحيد. لم أره يلتقط الغصن في الهواء. لم «يصفخ» الغصن نظارته كما كان يُفترض، إذ أنه مالنفك سادرا لا يبصر رفيقه الذي رماهُ إليه... أين هو ذلك الغصن الهوائي؟ هل صعد السماء؟ هل خان قوانين الجاذبية وعصى ميكانيكا الحركة؟...

آه، كلا... ياللغرابة! إنه هنا في «الغواصة»، غصنٌ رطبٌ لذيذ، أحملُهُ أنا بكفٍّ ينساب منه خيط سائلٍ حزينٍ فاقع الاحمرار. اللعنة! ماذا حصل بالضبط؟أشعر بارهاق شديد، أشعر بالدووووار! أشعر بالألم... آه، مااقرب المسافة بين «الغواصة» والغواصة! كم كانت مغريةً أحلامُ ذلك الميّت الذي صنعْتُهُ من أخيلتي وأحلامي، وفصّلْتُهُ لنفسي كما أهوى أن أكون بعد الموت! حقّا، كم كانت أخّاذةً وآسرةً إلى حدّ التصديق أحلامُ ذلك الميّت الذي نفخْتُ فيه من روحي! يبدو أنني اردتُ أن أقتنع قطعا أنها ليست احلاما، أردتُ أن أتوحّد معها وأؤمن بها حيّا كنتُ أو ميتا، عندما... عندما داعبْتُ كفّي بالإبرة الصغيرة، أنا ايضا، هنا في «الغوّاصة».

إستفاقتْ في ذهني، وأنا ألملم خيبتي مراقبا مسار النزيف، عبارةٌ توقّفتُ عندها وأنا أقرأ في صغري مذكرات ارنستو «تِشي» جيڤارا وهو يحكي ما كان يدور في خلده عندما كان محاصرا بجنود الدكتاتور باتستيا في ٥ ديسمبر ١٩٥٦:

«بدأتُ أفكّر في أفضل طريقة للموت في هذه الدقيقة التي بدا لي أن كلّ شئ قد ضاع فيها إلى الأبد. عادت إلى ذاكرتي قصةٌ قديمة لِجاك لندن، إتكأ بطلُها على جذع شجرة، عندما خطر له خلال ومضة فكرة أن يهيئ نفسه للموت بوقارٍ وعزّة نفس، بعد أن شعر أنه محكومٌ عليه نهائيا بالموت بالتجمّد في قفار الألاسكا الثلجية».

جرّتني تلك العبارة لقراءة قصّة جاك لندن: «يوقدُ نارا» المعنية في قول «تِشي». قرأتها أكثر من مرة ونسجتُ فيلمها في مخيّلتي بكلّ تفاصيله الصغيرة. إستعدتُهُ في صالات دماغي مرارا ولِزمنٍ طويل. ثمّ اختفى كليّةً من ذاكرتي التي صارت مرتعا للثقوب...

أعترفُ هنا أنني لم أكن تماما في نفس وضع بطل القصة الذي صارع من أجل البقاء حتّي تجمّدت شرايين قلبه، بعد أن فقد آخر عود كبريت في أصقاعٍ تدنو درجة حرارتها على السبعين تحت الصفر. لم أكن تماما في نفس وضع أعظم ثوريّي القرن العشرين – وأوسمهم!–، تشي جيڤارا الذي كان محاصرا حينها بعساكر الموت... ما يميّز حياتهما عن حياتي بشكلٍ خاص هو مفهوم الزمن: لم تداهمني مثلهما، خلال ومضة ثانية صغيرة، فكرةُ لقاءٍ ودّيٍّ مع الموت. هذه الثانية الصغيرة اكتسحت كلّ مساحة حياتي تقريبا. أعيشها ببطءٍ منذ أمد. هي وحدها – سيداتي، آنساتي وسادتي – تُلخّص جلّ عمري تقريبا! تُلخّص جلّ اعمارنا المنهوبة في زمن القات والتجويع والملاريا...

حسنا، تعلّمتُ شيئا واحدا على الأقل بعد هذه المحاولة الفاشلة للهروب من السجن: ينبغي أن أشتري هذه الليلة بطاريتين كهربائيتين. لعلّي أضمنُ، عند احتضاري يوم غد (وإن غداً لناظره قريب)، أن تسري روحي متدثّرةً بكلمات «سكنَ الليل»، مسترخيةً فوق بساط أمواجها الصوتية، تعْبرُ على متنها الفضاء نحو غوّاصة تبحرُ في أرخبيل العدم الواقع بين شمال اللانهاية وجنوب الله.

لندن – نجران، نوفمبر ١٩٩٩
امستردام – جيزان، ديسمبر ١٩٩٩

(١) اللبِنة تساوي ٤٤ مترا مربعا.
(٢) المبرز هو منتدى تناول القات.
(٣) الجُرعة تسمية شعبية لزيادة الأسعار وفقا للإجراءات الإقتصادية المتّخذة في اليمن لتطبيق توجيهات صندوق النقد الدولي.

«ساييه!»، كما يقولُ بفرنسيّةٍ طليقة جاري الذي عاش طويلا في جبوتي. «خلاص!»، كما تقولُ كلمة عربية أعشقها بامتياز. نعم، خلاص، مُتّ الآن! مُتّ حقا! مُتّ ولله الحمد! بلغتُ أجلي. تحقّقَ الحلم الذي انتظرته منذ أكثر من دهر. ها أنا الآن روحٌ أثيريّة تنسلخُ من جسدها، تغادرُ الارض مثل شعاع ضوء، مثل نظرة وداع.

ياللروعة! هاأنذا أرفرف. أجنحةٌ تنبثقُ من جوانب روحي، تنبتُ وتمتدّ فوق ضلوعي. كلّ أوصالي تتماوج في الفضاء بحبور ودهشة. أحلّق بحرية بعيدا عن عالمكم الطيني، بعيدا عن كلّ اجرام السماء، بعيدا عن المادة والزمن... أكاد لا أصدّق: لم أعد أعيش «على قيد الحياة» كتلةً جسدية هشّة تتلذذ بِقرْعِها مطارق حياتكم القاسية. (أتذكر الآن كم كنت أكره انذاكَ هذه العبارة المبرطمة: «على قيد الحياة»... لا يهمّ كلّ ذلك الآن. جاء الخلاص. ما أحلى الحرية! ما أمتع الحرية! ما أعظم الحرية!...

حبيب عبد الرب سروري
- من مواليد ١٩٥٦ بِعَدَنْ؛
- حصل على الدكتوراه في الرياضيات التطبيقية (قسم الكمبيوتر) في ١٩٨٧، ودكتوراه التأهيل لقيادة الأبحاث في الرياضيات التطبيقية (قسم الكمبيوتر) في ١٩٩١، من جامعة روان بفرنسا؛
- نُشِرتْ له العديد من الأبحاث العلمية، وأربعة كتب في علوم الكمبيوتر، ورواية بالفرنسية: «الملكة المغدورة»، عن دار الارماتان، ترجمها إلى العربية علي محمد زيد، وصُدِرت عن دار المهاجر؛
- أشرف على العديد من أبحاث الدكتوراه، ويترأسُ حاليا فريق «نمذجة الأنظمة الذكيّة» في مختبر «الإدراك الإلكتروني، المنظومات المنطقية، والمعلوماتيه» التابع للمعهد القومي للعلوم التطبيقية، ولجامعة روان، بفرنسا؛
- بروفيسور جامعي منذ ١٩٩٢ يقوم بتدريس علوم الكمبيوتر في قسم الهندسة الرياضية.